الفصل الثالث: في أحكام المعاملات

المبحث الأول: نقض أهل الكتاب المواثيق والعهود وتخريب المساجد:

المطلب الأول:

تناقضات اليهود وأكاذيبهم

{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(١)

قوله:**{أَفَتَطْمَعُونَ}** هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ**{يُؤْمِنُواْ لَكُمْ}** أي: لأجلكم، أو على تضمين آمن معنى استجاب، أي: أتطمعون أن يستجيبوا لكم و**{كَلاَمَ اللهِ}** أي: التوراة وقيل: إنهم سمعوا خطاب الله لموسى حين كلمه، وعلى هذا فيكون الفريق هم: السبعون الذين اختارهم موسى، وقرأ الأعمش:**{كلم الله}** والمراد من التحريف: أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حراماً، أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ، وإسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام الله لموسى فزادوا فيه، ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر، وإنكار على من طمع في إيمانهم، وحالهم هذه الحال: أي: ولهم سلف حرفوا كلام الله، وغيروا شرائعه، وهم مقتدون بهم، متبعون سبيلهم

ومعنى قوله:**{مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ}** أي: من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن

(١) البقرة: ٧٥ - ٨٢.

ذلك الذي، فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من بليغ شرائعه كما هي، فهم وقعوا في المعصية عالمين بها، وذلك أشد لعقوبتهم، وأبين لضلالهم

{وَإِذَا لَقُواْ الذين ءامَنُواْ} يعني أن المنافقين إذا لقوا الذين آمنوا:**{قَالُواْ ءامَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ}** أي: إذا خلا الذين لم ينافقوا بالمنافقين قالوا لهم عاتبين عليهم:**{أَتُحَدّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ}** أي: حكم عليكم من العذاب، وذلك أن ناساً من اليهود أسلموا، ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذّب به آباؤهم، وقيل إن المراد: ما فتح الله عليهم في التوراة من صفة محمد ﷺ، وقد تقدم معنى خلا والفتح عند العرب: القضاء، والحكم، والفتاح: القاضي بلغة اليمن والفتح: النصر، ومن ذلك قوله تعالى:**{يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ}**(1)

وقوله:**{إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الفتح}**(2) ومن الأوّل:**{ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق}**(3)

{وأنت خير الفاتحين}(4) أي: الحاكمين، ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين، والمحاجة: إبراز الحجة، أي: لا تخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب، فيكون ذلك حجة لهم عليكم، فيقولون: نحن أكرم على الله منكم، وأحق بالخير منه والحجة، الكلام المستقيم، وحاججت فلاناً، فحججته أي غلبته بالحجة**{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}** ما فيه الضرر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم ثم وبخهم الله سبحانه:**{أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}** من جميع أنواع الإسرار وأنواع الإعلان، ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان

وروى ابن جرير عن مجاهد، أن سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ قام لقوم قريظة تحت حصونهم فقال: «**يا إخوان القردة، والخنازير، ويا عبدة الطاغوت**» فقالوا: من أخبر هذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا الأمر إلا منكم:**{أَتُحَدّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ}**» أي: بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم

واخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله:**{أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا**

(1) البقرة: ٨٩.
(2) الأنفال: ١٩.
(3) سبأ: ٢٦.
(4) الأعراف: ٨٩.

يُعْلِنُونَ} يعني من كفرهم بمحمد ﷺ، ولكذبهم، وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين آمناً

ومعنى:**{لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ}** أنه لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأماني التي يتمنونها، ويعللون بها أنفسهم والأمانيّ: جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان لنفسه، فهؤلاء لا علم لهم بالكتاب الذي هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون، ولا يقرؤون المكتوب والاستثناء منقطع، أي: لكن الأمانيّ ثابتة لهم من كونهم مغفوراً لهم بما يدّعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة، أو بما لهم من السلف الصالح في اعتقادهم وقيل الأمانيّ: الأكاذيب، كما سيأتي عن ابن عباس ومنه قول عثمان بن عفان: ما تمنيت منذ أسلمت، أي: ما كذبت، حكاه عنه القرطبي في تفسيره، وقيل الأماني: التلاوة، ومنه قوله تعالى:**{إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ}**(١)

أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، ومنه قول كعب بن مالك:

تمنى كتابَ اللهِ أوّلَ لَيْلةٍ ::: وآخِرَه لاقى حِمامَ المقادر

وقال آخر:

تمنَّى كتابَ الله آخِرَ لَيْلةٍ ::: تَمنِّي داودَ الزَّبُورَ على رِسْلَ

وقيل الأماني: التقدير قال الجوهري: يقال: مني له، أي قدّر، ومنه قول الشاعر:

لا تأمَنَنَّ وإن أمسيتَ في حَرَم ::: حتى تُلاقِي ما يَمْنِي لك الماني

أي: يقدر لك المقدر قال في الكشاف: " والاشتقاق من مَنّي إذا قدّر؛ لأن المتمني يقدر في نفسه، ويجوّز ما يتمناه، وكذلك المختلق، والقارئ يقدران كلمة كذا بعد كذا " انتهى و«إن» في قوله:**{وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ}** نافية، أي: ما هم والظن هو: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم كذا في القاموس أي: ما هم إلا يترددون بغير جزم، ولا يقين، وقيل الظن هنا بمعنى: الكذب وقيل: هو: مجرد الحدس، لما ذكر الله سبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير عاملين بل يحرّفون كلام الله من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون، ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأماني، ويعتمدون على الظن، الذي لا يقفون من

(١) الحج: ٥٢.

تقليدهم على غيره، ولا يظفرون بسواه [١]

وقال الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه محضًا لم يشب؟ وقد حدَّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلا؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم[٢]

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها

وقوله تعالى: **{فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}** أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس: **{فَوَيْلٌ لَهُمْ}** يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، **{وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}** يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم

{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}

يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: **{قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا}** أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلِف عهده ولكن هذا ما جرى ولا كان ولهذا أتى بـ"أم" التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه

و عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّب بكل ألف سنة يومًا في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى: **{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً}** إلى قوله: **{خَالِدُونَ}** [٣] **{بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}**

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من

(١) فتح القدير للشوكاني صفحة / ١١.
(٢) صحيح البخاري/ التوحيد/ ٦٩٦٩.
(٣) البقرة: ٨٢.

عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات - من العمل الموافق للشريعة - فهم، من أهل الجنة وهذا المقام شبيه بقوله تعالى:**{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}**(١)

وساق ابن جرير بسنده: عن ابن عباس:**{بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً}** أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره فما له من حسنة

وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك

وقال الحسن - أيضًا - والسدي: السيئة: الكبيرة من الكبائر

وقال ابن جريج، عن مجاهد:**{وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}** قال: بقلبه

وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن:**{وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}** قالوا: أحاط به شركه

عن ابن عباس:**{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله، لا انقطاع له أبدًا (٢)

* * * * *

(١) النساء: ١٢٣، ١٢٤.
(٢)تفسير بن كثير بتصرف صفحة / ١١.

المطلب الثاني:
مخالفات اليهود ومتناقضاتهم

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ}(١)

ومن الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بني إسرائيل، ذلك الميثاق الذي أخذه عليهم في ظل الجبل، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه أن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضاً، فتنكروا لها وأنكروها

لقد تضمن ميثاق الله معهم: ألا يعبدوا إلا الله القاعدة الأولى للتوحيد المطلق وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وتضمن خطاب الناس بالحسنى، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه

ومن ثم تتقرر حقيقتان: الأولى هي وحدة دين الله؛ وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله في أصوله والثانية هي مقدار التعنت في موقف اليهود من هذا الدين، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه، وأعطوا عليه الميثاق

وهنا - في هذا الموقف المخجل - يتحول السياق من الحكاية إلى الخطاب، فيوجه القول إلى بني إسرائيل وكان قد ترك خطابهم والتفت إلى خطاب المؤمنين ولكن توجيه الخطاب إليهم هنا أخزى وأنكى:{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ}

(١) البقرة: ٨٣ - ٨٦.

وهكذا تتكشف بعض أسرار الالتفات في سياق القصص وغيره في هذا الكتاب العجيب!

ويستمر السياق يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}

فماذا كان بعد الإقرار وهم شاهدون حاضرون؟

{ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}

ولقد كان هذا الذي يواجههم به واقعاً قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج كان الأوس والخزرج مشركين، وكان الحيّان أشد ما يكون حيّان من العرب عداء وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشركين كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه؛ فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء - وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته

هذا التناقض هو الذي يواجههم به القرآن؛ وهو يسألهم في استنكار:**{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟}**

وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم عليه بالخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الأشد في الآخرة مع التهديد الخفي بأن الله ليس غافلاً عنه ولا متجاوزاً:**{فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}**

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعاً، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم:

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}

وكذبوا إذن في دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة فهؤلاء هم هناك: **{فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}**

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة: هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم فإن انقسامهم فريقين، وانضمامهم إلى حلفين، هي هي خطة إسرائيل التقليدية، في إمساك العصا من الوسط؛ والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغانم على أية حال

وضمان صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك! وهي خطة من لا يثق بالله، ولا يستمسك بميثاقه، ويجعل اعتماده كله على الدهاء، ومواثيق الأرض، والاستنصار بالعباد لا برب العباد والإيمان يحرم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم، ويناقض تكاليف شريعتهم، باسم المصلحة أو الوقاية، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم

ثم يمضي السياق يواجه بني إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء أنبيائهم هم، وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاؤوهم بالحق، الذي لا يخضع للأهواء(١)

* * * * *

(١ ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة ١٣.

المطلب الثالث:

موقف أهل الكتاب من المؤمنين ومن بعضهم بعضا

{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}(١)

في «تفسير ابن عطية» و«الكشاف» و«أسباب النزول» للواحدي أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر أتيا بيت المدراس وفيه فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس وغيرهما من اليهود فقالوا لحذيفة وعمار: «ألم تروا ما أصابكم يوم أحد ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير ونحن أهدى منكم» فردا عليهم وثبتا على الإسلام

وإنما أسند هذا الحكم أي الكثير منهم وقد أسند قوله:**{مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ}**(٢) إلى جميعهم لأن تمنيهم أن لا ينزل دين إلى المسلمين يستلزم تمنيهم أن يتبع المشركون دين اليهود أو النصارى حتى يعم ذلك الدين جميع بلاد العرب فلما جاء الإسلام شرقت لذلك صدورهم جميعاً فأما علماؤهم وأحبارهم فخابوا وعلموا أن ما صار إليه المسلمون خير مما كانوا عليه من الإشراك لأنهم صاروا إلى توحيد الله والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وفي ذلك إيمان بموسى وعيسى وإن لم يتبعوا ديننا، فهم لا يودون رجوع المسلمين إلى الشرك القديم لأن في مودة ذلك تمني الكفر وهو رضي به وأما عامة اليهود وجهلتهم فقد بلغ بهم الحسد والغيظ إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك ولا يبقوا على هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمه نكاية بالمسلمين وبالنبي ﷺ قال تعالى:**{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**

(١) سورة البقرة: ١٠٩ - ١١٣.
(٢) البقرة: ١٠٥.

{وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً}(١) وفي هذا المعنى المكتنز ما يدلكم على وجه التعبير بـ{يَرُدُّونَكُم} دون لو كفرتم ليشار إلى أن ودادتهم أن يرجع المسلمون إلى الشرك لأن الرد إنما يكون إلى أمر سابق ولو قيل لو كفرتم لكان فيه بعض العذر لأهل الكتاب لاحتماله أنهم يودون مصير المسلمين إلى اليهودية وبه يظهر وجه مجيء{كُفَّاراً} معمولاً لمعمول{وَدَّ كَثِيرٌ} ليشار إلى أنهم ودوا أن يرجع المسلمون كفاراً بالله أي كفارا كفراً متفقاً عليه حتى عند أهل الكتاب وهو الإشراك فليس ذلك من التعبير عن ما صْدق ما ودوه بل هو من التعبير عن مفهوم ما ودوه، وبه يظهر أيضاً وجه قوله تعالى:{مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ} فإنه تبيُّنُ أن ما عليه المسلمون حق من جهة التوحيد والإيمان بالرسل بخلاف الشرك، أو من بعد ما تبين لهم صدق رسول الله ﷺ عندهم إذا كان المراد بالكثير منهم خاصة علمائهم والله مطلع عليهم

وإنّما أمر المسلمون بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع خاصة لأن ما حكى عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدة كراهيتهم للكفر

قال تعالى:{وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ} (٢) فلا جرم أن كان من يود لهم ذلك يعدونه أكبر أعدائهم فلما كان هذا الخبر مثيراً للغضب خيف أن يفتكوا باليهود وذلك ما لا يريده الله منهم لأن الله أراد منهم أن يكونوا مستودع عفو وحلم حتى يكونوا قدوة في الفضائل

والعفو ترك عقوبة المذنب والصفح بفتح الصاد مصدر صفح صفحاً إذا أعرض لأن الإنسان إذا أعرض عن شيءٍ ولاه من صفحة وجهه، وصفح وجهه أي جانبه وعرضه وهو مجاز في عدم مواجهته بذكر ذلك الذنب أي عدم لومه وتثريبه عليه وهو أبلغ من العفو كما نقل عن الراغب ولذلك عطف الأمر به على الأمر بالعفو لأن الأمر بالعفو لا يستلزمه ولم يستغن باصفحوا لقصد التدريج في أمرهم بما قد يخالف ما تميل إليه أنفسهم من الانتقام تلطفاً من الله مع المسلمين في حملهم على مكارم الأخلاق

وقوله:{حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} أي حتى يجيء ما فيه شفاء غليلكم قيل هو إجلاء بني النضير وقتل قريظة، وقيل الأمر بقتال الكتابيين أو ضرب الجزية

(١) النساء: ٥١.
(٢) الحجرات: ٧.

والظاهر أنه غاية مبهمة للعفو والصفح تطميناً لخواطر المأمورين حتى لا ييأسوا من ذهاب أذى المجرمين لهم بطلاً وهذا أسلوب مسلوك في حمل الشخص على شيء لا يلائمه كقول الناس حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً فإذا جاء أمر الله بترك العفو انتهت الغاية، ومن ذلك إجلاء بني النضير

ولعل في قوله:{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} تعليماً للمسلمين فضيلة العفو أي فإن الله قدير على كل شيء وهو يعفو ويصفح وفي الحديث الصحيح: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل يدعون له نداً وهو يرزقهم**» أو أراد أنه على كل شيء قدير فلو شاء لأهلكهم الآن ولكنه لحكمته أمركم بالعفو عنهم وكل ذلك يرجع إلى الائتساء بصنع الله تعالى وقد قيل: إن الحكمة كلها هي التشبه بالخالق بقدر الطاقة البشرية فجملة{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} تذييل مسوق مساق التعليل، وجملة:{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} إلى قوله:{وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ}(١) تفريع مع اعتراض فإن الجملة المعترضة هي الواقعة بين جملتين شديدتي الاتصال من حيث الغرض المسوق له الكلام والاعتراض هو مجيء ما لم يسق غرض الكلام له ولكن للكلام والغرض به علاقةً وتكميلاً وقد جاء التفريع بالفاء هنا في معنى تفريع الكلام على الكلام لا تفريع معنى المدلول على المدلول لأن معنى العفو لا يتفرع عن ود أهل الكتاب ولكن الأمر به تفرع عن ذكر هذا الود الذي هو أذى وتجيء الجملة المعترضة بالواو وبالفاء بأن يكون المعطوف اعتراضاً (٢) وقد جوزه صاحب «الكشاف» عند قوله تعالى:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}(٣)

معنى الآية الكريمة: أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل كتاب، أن ينقلوكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر، حسداً لكم وبغضاً لدينكم، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق باتباعكم محمدا ﷺ فلا تهتموا بهم، بل قابلوا أحقادهم وضرورهم بترك عقابهم، والإعراض عن أذاهم، حتى يأذن ألإاله لكم فيهم بما فيه خيركم ونصركم، فإنه - سبحانه - على كل شيء قدير "

وقوله تعالى:{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً} بيان للون من

(١) البقرة: ١١١.
(٢) تفسير ابن عاشور /صفحة ١٤.
(٣) النحل: ٤٣.

ألوان الشرور التي يضمرها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق، إلى الكفر الذي أنقذهم الله - تعالى - منه

وإنما أسند - سبحانه - هذا التمني الذميم إلى الكثرة منهم، انصافاً للقلة المؤمنة التي لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام

وقوله تعالى:{**بَعْدِ إِيمَانِكُمْ**} مبالغة في ذمهم بسبب ما تمنوه وأحبوه إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان، وفيه إشعار بأن ما تمنوه بعيد الحصول؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر

ثم بين - سبحانه - أن الذي حملهم على هذا التمني الذميم هو الحقد والحسد، فقال تعالى:{**حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق**} أي: أن هذا التمني لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذي استولى على نفوسهم، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة، من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: " والحسد: قلق النفس من رؤية نعمة يصيبها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير وتمني زوال النعم مذموم بكل لسان، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهية للجور والفساد لا يدخل في قبيل الحسد المذموم فإن لم تتمن زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهي الغبطة والمنافسة، وهي محمودة لأنها قد تنتهي بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل في غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون في وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القدح في المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه "

وقوله تعالى:{**مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**} إعلام للمؤمنين، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك في كتابهم، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميم ولكنهم لخبث نفوسهم وسوء طباعهم رسخ الحسد في قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم، أو صرفهم عنه

والجملة الكريمة:{**حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**} تدل على أن أولئك اليهود يعتقدون صحة

دين الإسلام، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين إلا إذا عرف في نفسه صحته، وأنه طريق الفوز والفلاح

وقوله تعالى:**{مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق}** يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت، بعد أن ظهر لهم صدق النبي ﷺ بوعد أن تبين لهم أن الصفات التي وردت في التوراة بشأن المبشر به، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة، وبتبشيرها بالنبي ﷺ

ثم أمر الله تعالى المؤمنين في ختام الآية أن يقابلوا شرور اليهود بالعفو والصفح، وأن يوادعوهم إلى حين فقال تعالى:**{فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**

والعفو: ترك العقاب على الذنب والصفح: ترك المؤاخذة عليه، فكل صفح عفو ولا عكس

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تتركو معاقبة أولئك اليهود الحاسدين وأن تعرضوا عن رفع السيف في وجوههم حتى يأذن الله لكم في أن تشفو صدوركم منهم، ويبيح قتالهم الذي يترتب عليه نصركم، إذ أن كل شيء داخل تحت سلطان قدرته - تعالى

فالمراد بالأمر في قوله تعالى:**{حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ}** الإذن للمسلمين بقتالهم في الوقت الذي يختاره الله - تعالى - لهم، عند ما تكون لهم القوة التي يتمكنون بها من جهاد أعدائهم

قال صاحب المنار: قال الأستاذ الإمام: " وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوي العادل، للضعيف الجاهل وفي إنزال المؤمنين على قلتهم منزلة الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل كما قلنا غيره مرة، وإنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه "

وقد أكد الله - تعالى - وعده بقوله:**{إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** أي أن كل شيء داخل تحت قدرته النافذة التي لا يعجزها شيء

وقد أنجز الله - تعالى - وعده، فأذن للمؤمنين في الوقت المناسب بقتال اليهود وتأديبهم، وقد ترتب على ذلك النصر للمؤمنين، والطرد والقتل لليهود الحاقدين

وبعد أن أمر القرآن المؤمنين في الآية السابقة بالعفو والصفح عن أعدائهم لأن الحكمة تجعل العفو والصفح خيراً من العقوبة والتأنيب، انتقل بعد ذلك إلى أمرهم بالمحافظة على الشعائر التي تطهر قلوبهم، وتزكي نفوسهم فقال - تعالى:**{وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة}**

{مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}(١)

فتأويل الكلام: ما يحب الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزل عليكم من الخير الذي كان عند الله فنزله عليكم فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزل الله عليهم الفرقان وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته، وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك، حسدا وبغيا منهم على المؤمنين

وفي هذه الآية دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون(٢)

وهذه الآية رجوع إلى كشف السبب الذي دعا لامتناع اليهود من الإيمان بالقرآن لما قيل لهم:**{آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ}** فقالوا:**{نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا}**(٣) أي ليس الصارف لهم تمسكهم بما أنزل إليهم بل هو الحسد على ما أنزل على النبي، والمسلمين من خير، فبين أدلة نفي كون الصارف لهم هو التصلب والتمسك بدينهم بقوله:**{قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ}**(٤) وما تخلل ذلك ونشأ عنه من المجادلات وبيان إعراضهم عن أوامر دينهم واتباعهم السحر وبين الآن حقيقة الصارف عن الإيمان بالقرآن والموجب للشتم وقول البهتان ليتخلص

(١) البقرة: ١٠٥.
(٢) تفسير الطبري صفحة / ١٦.
(٣) البقرة: ٩١.
(٤) البقرة: ٩١.

من ذلك إلى بيان النسخ

و (الود) بضم الواو المحبة ومن أحب شيئاً تمناه فليس الود هو خصوص التمني ولا المحبة المفرطة كما حققه الراغب

وذكر (الذين كفروا) هنا دون اليهود لقصد شمول هذا الحكم اليهود والنصارى معاً تمهيداً لما يأتي من ذكر حكمة النسخ ومن قوله:{وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} (١)

ونبه بقوله:{الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ} دون ما يود أهل الكتاب على أنهم لم يتبعوا كتابهم لأن كتبهم تأمرهم باتباع الحق حيثما وجدوه وبالإيمان بالنبي المقفي على آثارهم وفي التوراة والإنجيل مواضع كثيرة فيها أخذ الميثاق على ذلك فلما حسدوا النبيء ﷺ على النبوءة وحسدوا المسلمين فقد كفروا بما أمرت به كتبهم وبهذا تخلص الكلام إلى الجمع بين موعظة النصارى مع موعظة اليهود

ولما كان ما اقتضاه الحال من التعبير بقوله:{الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ} قد يوهم كون البيان قيداً وأن الكافرين من غير أهل الكتاب لا يحسدون المسلمين عطف عليه قوله:{وَلاَ المُشْرِكِينَ} كالاحتراس وليكون جمعاً للحكم بين الجميع فيكون له حظ في التمهيد لقوله فيما يأتي:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}(٢) وقرأ الجمهور (أن ينزل) بتشديد الزاي مفتوحة والتعبير بالتنزيل دون الإنزال لحكاية الواقع إذ القرآن نزل منجماً لتسهيل حفظه وفهمه وكتابته وللتيسير على المكلفين في شرع الأحكام تدريجاً وقرأه ابن كثير وابن عمرو بتخفيف الزاي مفتوحة أيضاً وذلك على أن نفي ودادتهم متعلق بمطلق إنزال القرآن سواء كان دفعة أو منجماً

والخير النعمة والفضل، قال النابغة: فلست على خير أتاك بحاسد وأراد به هنا النبوءة وما أيدها من الوحي والقرآن والنصر وهو المعبر عنه بالرحمة في قوله:{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ}

وقوله:{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ} عطف على{مَا يَوَدُّ} لتضمنه أن الله أراد ذلك

(١) البقرة: ١١١.
(٢) البقرة: ١١٤.

وإن كانوا هم لا يريدونه

والرحمة هنا مثل الخير المنزل عليهم وذلك إدماج للامتنان عليهم بأن ما نزل عليهم هو رحمة بهم ومعنى الاختصاص جعلها لأحد دون غيره لأن أصل الاختصاص والتخصيص راجع إلى هذا المعنى أعني جعل الحكم خاصاً غير عام سواء خص واحداً أو أكثر ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه أي من يشاء اختصاصه بالرحمة

والمشيئة هي الإرادة ولما كانت إرادة الله تتعلق بالمراد على وفق علمه تعالى كانت مشيئته أي إرادته جارية على وفق حكمته التي هي من كيفيات علم الله تعالى فهي من تعلقات علم الله بإبراز الحوادث على ما ينبغي

فالله يختص برحمته من علم أنه حقيق بها لا سيما الرحمة المراد منها النبوءة فإن الله يختص بها مَن خلقه قابلاً لها فهو يخلقه على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة لتلقي الوحي شيئاً فشيئاً قال تعالى:**{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً}**(١) وقال:**{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}**(٢) ولذلك لم تكن النبوءة حاصلة بالاكتساب لأن الله يخلق للنبوءة من أراده لها لخطر أمرها بخلاف غيرها من الفضائل فهو ممكن الاكتساب كالصلاح والعلم وغيرهما فرب فاسق صلحت حاله ورب جاهل مطبق صار عالماً بالسعي والاكتساب ومع هذا فلا بد لصاحبها من استعداد في الجملة ثم وراء ذلك التوفيق وعناية الله تعالى بعبده ولما كانت الاستعدادات لمراتب الرحمة من النبوءة فما دونها غير بادية للناس طوى بساط تفصيلها لتعذره ووكل إلى مشيئة الله التي لا تتعلق إلا بما علمه واقتضته حكمته سبحانه رفقاً بأفهام المخاطبين

وقوله:**{وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ}** تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة فيتخلى عن المعاصي والخبائث ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه وفي الحديث الصحيح: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في**

(١) يوسف: ٢٢.
(٢) الأنعام: ١٢٤.

الشدة» [1]

{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[2]

قوله تعالى:**{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** الآية نزلت في نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم فقال لهم عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله ربا، وبمحمد نبيا، وبالإسلام دينا، وبالقرآن إماما، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخوانا، ثم أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك فقال رسول الله ﷺ : **«قد أصبتما الخير وأفلحتما»**

فأنزل الله تعالى:**{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ}** أي تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود**{لَوْ يَرُدُّونَكُمْ}** يا معشر المؤمنين**{مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا}** نصب على المصدر، أي يحسدونكم حسدا**{مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ}** أي من تلقاء أنفسهم ولم يأمرهم الله بذلك،**{مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}** في التوراة أن قول محمد ﷺ صدق ودينه حق**{فَاعْفُوا}** فاتركوا**{وَاصْفَحُوا}** وتجاوزوا، فالعفو: المحو والصفح: الإعراض، وكان هذا قبل آية القتال**{حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}** بعذابه: القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة: هو أمره بقتالهم في قوله:**{قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ}** - إلى قوله:**{وَهُمْ صَاغِرُونَ}**[3] وقال ابن كيسان: بعلمه وحكمه فيهم حكم لبعضهم بالإسلام ولبعضهم بالقتل والسبي والجزية**{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[4]

* * * * *

(١) تفسير ابن عاشور صفحة / ١٦.

(٢) البقرة: ١٠٩.

(٣) التوبة: ٢٩.

(٤) تفسير البغوي صفحة / ١٧.

المطلب الرابع:

تخريب المساجد وهدمها وآداب الخطاب

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ له مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ له قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ له كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آَيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}(١)

يرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن الرومانيين الذين غزوا بيت المقدس وخربوه ويرى آخرون أنها نزلت في كفار قريش حين منعوا رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية

وكيفما كان سبب النزول، فالآية تشمل بذمها ووعيدها، كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها

ومن اسم استفهام يراد منه النفي، أي: لا أظلم والمساجد: جمع مسجد، وهو المكان الخاص للعبادة، مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيما

والظلم: الاعتداء على حق الغير، بالتصرف فيه بما لا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان واضحان هنا

وذكر اسم الله كناية عما يؤدي فيها من العبادات، إذ لا تكاد عبادة تخلو من ذكر اسمه تعالى

والسعي في الأصل: المشي بسرعة في معنى الطلب والعمل

والخراب: ضد التعمير، ويستعمل لمعنى تعطيل المكان وخلوه مما وضع له

قال القرطبي: " وخراب المساجد قد يكون حقيقياً، كتخريب بختنصر والرومان لبيت المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه ويكون مجازاً كمنع المشركين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار

(١) البقرة: ١١٤ - ١١٨.

شعائر الإسلام فيها خراب لها "

والمعنى: لا أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله، وعمل في خرابها بالهدم كما فعل الرومان وغيرهم ببيت المقدس، وها هم اليهود أحرقوا بيت المقدس عدة مرات، وكذلك قاموا بحفر الأنفاق تحته،والكثير من الحفريات حوله تمهيدا لهدمه

قال صاحب الكشاف: " فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله، وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت لا بأس أن يجيء الحكم عاماً، وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن آذى الصالحين، كما قال - عز وجل:**{وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ}** والمنزول فيه هو الأخنس بن شريق "

وقوله - تعالى:**{أولئك مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ}** معناه: ما ينبغي لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون في خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله - تعالى - لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه - تعالى - أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلا عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها

قال ابن كثير: " وفي هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد فمنع المشركين من دخول المسجد الحرام، وذلك أنه بعد أن تم فتح مكة للمسلمين أمر النبي ﷺ من العام القابل منادياً ينادي برحاب منى " ألا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته "

وعندما حج النبي ﷺ عام حجة الوداع لم يجترئ أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام وهذا هو الخزي في الدنيا لهم، المشار إليه بقوله - تعالى:**{لَّهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ}** أي: لهم في الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم يخلدون معه في النار، وليس هناك أشقى ممن يعيش دنياه في هوان وذلة، ثم ينتقل إلى أخراه فيجد مصيره العذاب الأليم الذي لا يموت فيه ولا يحيا

ثم أخذ القرآن في تسلية المسلمين الذين أخرجوا من مكة وفارقوا المسجد الحرام، مبيناً لهم أن الجهات كلها لله - تعالى - فقال:**{وَلِلَّهِ المشرق والمغرب}**

المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس وغروبها، والمراد بهما هنا جمع جهات الأرض

واللام في قولـه:**{وَلِلَّهِ}** تفيد معنى الملك

والتولية: التوجه من جهة إلى أخرى و(ثم) اسم إشارة للمكان

والوجه: الجهة، فوجه الله الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها وهي القبلة

والمعنى: أن جميع الأرض ملك لله وحده، ففي أي مكان من المشرق والمغرب توليتم شطر القبلة التي أمركم الله بها ورضيها لكم، فهناك جهته - سبحانه - التي أمرتم بها، والتي تبرأ ذممكم باستقبالها

ومعنى هذا: الإذن بإقامة الصلاة في أي مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد، ففي الحديث الشريف: **«جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»**

وكأن الآية تومى، إلى أن سعى أولئك الظالمين في منع المساجد من ذكره - تعالى - وتخريبها، لا يمنع من أداء العبادة لله - تعالى -: لأن لـه المشرق والمغرب وما بينهما، فأينما حل الإنسان وتحرى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منه استقبالها

وذيلت الآية بقولـه:**{إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ}** لإفادة سعة ملكه أو سعة تيسيره على عباده في أمر الدين: أي: إن الله يسع خلقه جميعاً برحمته وتيسيره وجوده وهو عليم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أينما كان وكيفما كان

ثم حكى القرآن بعض الأقاويل الباطلة التي افتراها أصحاب القلوب المريضة فقال - تعالى:**{وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ}**

قولـه - تعالى:**{وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً}** معطوف على قولـه - تعالى - قبل ذلك وقالت اليهود ليست النصارى على شيء إلخ "

واتخذ: من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل والولد: يطلق على الذكر والأنثى، والواحد والجمع

والذين قالوا اتخذ الله ولدا هم اليهود والنصارى والمشركون، فقد حكى الله عن اليهود أنه قالوا:**{عُزَيْرٌ ابن الله}** وحكى عن النصارى أنهم قالوا:**{المسيح ابن الله}** وحكى عن المشركين أنهم قالوا: " الملائكة بنات الله " فيصح أن يكون الضمير في قالوا عائداً

على الفرق الثلاث أو على بعضهم فمن المعروف أن القرآن يجري على الأسلوب المعروف في المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر من بعضهم فحين قال:**{وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله}** أصبح من السائغ في صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم:

وقوله:**{سُبْحَانَهُ}** تنزيه له عما هو نقص في حقه ومحال عليه من اتخاذ الولد، لاقتضاء الوالدية: النوعية والجنسية والتناسل والافتقار، والتشبيه والحدوث وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم»** (١)

وسبحانه: مصدر لسبح بمعنى نزه، وهو منصوب بفعل لم يسمع من العرب التصريح به معه، والأصل: أسبحه سبحانه، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وأضيف إلى ضمير المنزه

وقوله:**{بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** إضراب عن مقالاتهم التي نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد، وشروع في الاستدلال على بطلانها

واللام في قوله:**{لَّهُ}** للاختصاص الكامل وهو الملك الحقيقي، و(ما) اسم موصول يراد منه الكائنات: ما يعقل وما لا يعقل ومن جملة هذه الكائنات من ادعوا أنه ولد لله

والمقصود إثبات أن قولهم:**{اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً}** زعم باطل، فإن جميع ما احتوت عليه السموات والأرض مملوك لله يتصرف فيه كيف يشاء، فلا حاجة إلى اتخاذ الولد، إذ الولد إنما يسعى إليه الوالد، أو يرغب فيه ليعتزبه أو ليحيى ذكره، أوليستعين به على القيام بأعباء الحياة والله - تعالى - منزه عن أمثال هذه الأغراض التي لا تليق إلا بمن خلق ضعيفاً كالإنسان ثم إن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظاً بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقائه بعينه، أما الخالق - تعالى - فهو الواحد في ذاته وصفاته، الباقي على الدوام، كما قال تعالى:**{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام}** وقوله - تعالى:**{كُلٌّ له قَانِتُونَ}**

معناه: كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد، خاضعون لا يستعصي منهم شيء

(١) صحيح مسلم / ٥٠١٧.

على مشيئته وإرادته: شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع، وإنما جاء{قَانِتُونَ} بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم تغليباً للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره في غيرهم

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال:{بَدِيعُ السماوات والأرض} أي: مبدعهما ومنشئهما بلا احتذاء ولا اقتداء وبلا آلة ولا مادة، وبديع صفة مشبهة من أبدع، والذي ابتدعهما من غير أصل ولا مثال هو الله - تعالى - وخص السموات والأرض بالإبداع، لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات

قال القرطبي: " قوله - تعالى:{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ} فعيل للمبالغة وارتفع على أنه خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع كبصير من مبصر أبدعت الشيء لا عن مثال، فالله - تعالى - بديع السموات والأرض، أي منشئهما وموجدهما، ومخترعهما، على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، ومنه أصحاب البدع؛ وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام "

وقوله:{وَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ له كُنْ فَيَكُونُ} معناه: وإذا أراد - سبحانه - إحداث أمر من الأمور حدث فوراً " وكن فيكون فعلان من الكون بمعنى الحدوث ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل، لحدوث ما تتعلق به إرادته - سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففي الكلام استعارة تمثيلية

ويرى آخرون أن الأمر يكن محمول على حقيقته، وأنه - تعالى - أجرى سنته في تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا بعض الشبهات الباطلة التي أوردها الضالون حول وحدانية الله وردت عليها بما يدحضها ويثبت كذبها

ثم أورد القرآن بعد ذلك الشبهات التي أثارها حول نبوة محمد ﷺ وأجاب عنها بما يبطلها فقال تعالى:{وَقَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله أَوْ تَأْتِينَآ}

عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة اليهودي لرسول الله ﷺ يا محمد، إن كنت

رسولا من الله كما تقول، فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله هذه الآية

فالآية الكريمة معطوفة على قوله:{وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً} ومعنى الآية الكريمة{وَقَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ} علماً نافعاً أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك بالمطالب المتعنتة - يا محمد:{لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله} إما مشافهة، أو بواسطة الوحي إلينا لا إليك، أو يرينا حجة تقوم على صدق رسالتك، قالوا هذا على وجه العناد والجحود أن تكون الآيات التي أقامها الله على صدق رسالته آيات حقاً

وقد رد الله عليهم بقوله:{كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ} أي: مثل هذا القول المتعنت، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وفي هذه الجملة تسلية للرسول ﷺ بأن ما لاقاه من قومه مثل ما لقيه الرسل من قبله

{تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} أي تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك في العناد والضلال

{قَدْ بَيَّنَّا الآيات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أي: جعلناها بينة واضحة في ذاتها لمن شأنهم الإخلاص في طلب الحق أينما كان، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء موقنة بجلال الحق ووجوب الطاعة

قال الإمام الرازي: وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء، اختار أقرب الطرق إليه، وبما أن الله قد كلم موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهةً، أو يخصك بمعجزةٍ يتجلى من ورائها صدق نبوتك، وهذا منهم طعن في أن القرآن معجزة، لأنهم لو أقروا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله:{كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ} وحاصل هذا الجواب: أنا قد أيدنا قول محمود بالمعجزات، وبينا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج، فكان طلب هذه الزوائد من باب العنت وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها:

١ - لو كان في معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجاجاً

٢ - أن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب، فإذا لم يكتف بها، كان طلبه من باب المعاندة

٣ - ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدح في كونها معجزة لأن الخوارق متى توالت كان انخراق العادة عادة فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح في النبوة

هذا، وبعض المفسرين يرى أن المراد ب**{الذين لاَ يَعْلَمُونَ}** اليهود، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركوا العرب وبعضهم يرى أن المراد يهم النصارى، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم، ولكنا نختار أن اليهود هم المقصودون قصداً أولياً من هذه الآية للأسباب الآتية:

١ - الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بني إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم

٢ - جملة:**{كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ}** قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب، لقد قالوا له:**{لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً}** وقالوا:**{أَرِنَا الله جَهْرَةً}** وطلبوا منه كثيرا من المطالب المتعنتة

٣ - الآية مدنية ومن سورة البقرة التي هي من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ بالمدينة، ومن المعروف أن حديث القرآن المدني عن أهل الكتاب بصفة عامة، وعن اليهود بصفة خاصة، أكثر من حديثه عن مشركي العرب، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق

٤ - سبب نزول الآية الذي ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصداً أولياً في هذه الآية

٥ - القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركوا العرب، دعموا قولهم بأن آيات القرآن التي تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود

وردنا عليهم القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة بدليل قوله تعالى:**{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السمآء فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك فقالوا أَرِنَا الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتخذوا العجل مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات فَعَفَوْنَا عَن ذلك وَآتَيْنَا موسى سُلْطَاناً مُّبِيناً}**

٦ - الإمام ابن جرير رجح أن المراد ب{الذين لاَ يَعْلَمُونَ} النصارى، مستدلا بأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، فالآية السابقة على هذه الآية تقول

{وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل له مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ له قَانِتُونَ} والنصارى هم الذين قالوا ذلك

وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتي:

١ - لأن الآية ليست في سياق خبر الله عن النصارى، وإنما هي في سياق خبر الله عن اليهود، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحججهم وأخلاقهم في أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة

٢ - ليس النصارى وحدهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولداً وإنما اليهود أيضاً قالوا ذلك، قال تعالى:{وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله} لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود، ولم يتعرض للنص الذي أورده ابن عباس في سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته في ظاهر الكتاب)

هذا وبعد ذلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى: إننا لا نمانع في أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة ولكنا نرجح أن اليهود هم المقصودون قصداً أولياً مهما دخل غيرهم معهم في السياق، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التي لا خير من ورائها، ومحاولاتهم الطعن في نبوة النبي ﷺ

ثم ساق القرآن للنبي ﷺ ما يسلبه ويثبته فقال:{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بالحق بَشِيراً}(١)

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى المكتبة الشاملة صفحة / ١٨ بتصرف.

المطلب الخامس:
جزاء كتمان آيات الله

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}(١)

قوله:{إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ} قيل: المراد بهذه الآية: علماء اليهود؛ لأنهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد ﷺ والاشتراء هنا: الاستبدال، وقد تقدّم تحقيقه، وسماه قليلاً؛ لانقطاع مدّته وسوء عاقبته، وهذا السبب، وإن كان خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ، وهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله، وأخذ عليه الرشا، وذكر البطون دلالة، وتأكيداً أن هذا الأكل حقيقة، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل: أكل فلان أرضي، ونحوه، وقال في الكشاف: إن معنى:{فِي بُطُونِهِمْ} ملء بطونهم: قال: يقول: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه انتهى

وقوله:{إِلاَّ النار} أي: أنه يوجب عليهم عذاب النار، فسمى ما أكلوه ناراً؛ لأنه يؤول بهم إليها، هكذا قال أكثر المفسرين، وقيل: إنهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة، ومثله قوله سبحانه:{إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً}(٢) وقوله:{وَلاَ يُكَلّمُهُمُ الله} فيه كناية عن حلول غضب الله عليهم، وعدم الرضا عنهم، يقال فلان لا يكلم فلاناً: إذا غضب عليه وقال ابن جرير الطبري: المعنى: ولا يكلمهم بما يحبونه لا بما يكرهونه كقوله تعالى:{اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلّمُونِ}(٣)، وقوله:{وَلاَ يُزَكّيهِمْ} معناه: لا يثنى عليهم خيراً قاله الزجاج وقيل معناه: لا يصلح أعمالهم الخبيثة، فيطهرهم

وقوله:{اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} قد تقدّم تحقيق معناه وقوله:{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النار} ذهب الجمهور ومنهم الحسن ومجاهد إلى أن معناه التعجب، والمراد: تعجيب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار، فكأنهم بهذه المباشرة

(١) سورة البقرة: ١٧٤ - ١٧٦.
(٢) النساء: ١٠.
(٣) المؤمنون: ١٠٨.

للأسباب صبروا على العقوبة في نار جهنم

وحكى الزجاج أن المعنى: ما أبقاهم على النار، من قولهم: ما أصبر فلاناً على الحبس، أي: ما أبقاه فيه، وقيل المعنى: ما أقلّ جزعهم من النار، فجعل قلة الجزع صبراً وقال الكسائي وقُطْرُب: أي ما أدومهم على عمل أهل النار وقيل: «ما» استفهامية، ومعناه التوبيخ: أي أيّ شيء أصبرهم على عمل النار؟ قاله ابن عباس، والسدي، وعطاء، وأبو عبيدة

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ} الإشارة باسم الإشارة إلى الأمر، أي: ذلك الأمر، وهو العذاب قاله الزجاج وقال الأخفش: إن خبر اسم الإشارة محذوف، والتقدير: ذلك معلوم والمراد بالكتاب هنا: القرآن،**{بِالْحَقِّ}** أي: بالصدق وقيل بالحجة وقوله:**{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ}** قيل: المراد بالكتاب هنا التوراة، فادّعى النصارى أن فيها صفة عيسى، وأنكرهم اليهود، وقيل: خالفوا ما في التوراة من صفة محمد ﷺ واختلفوا فيها وقيل: المراد: القرآن، والذين اختلفوا كفار قريش، يقول بعضهم هو سحر، وبعضهم يقول: هو أساطير الأوّلين، وبعضهم يقول غير ذلك

{لَفِى شِقَاقٍ} أي: خلاف**{بَعِيدٍ}** عن الحق، وقد تقدم معنى الشقاق

وقد أخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله:**{إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ الله}** قال: نزلت في يهود وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: كتموا اسم محمد ﷺ، وأخذوا عليه طمعاً قليلاً وأخرج ابن جرير، أيضاً عن أبي العالية نحوه وأخرج الثعلبي، عن ابن عباس بسندين ضعيفين أنها نزلت في اليهود

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله:**{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى}** قال: اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة**{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}** قال: ما أجرأهم على عمل النار، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله:**{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}** قال: ما أعملهم بأعمال أهل النار وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن في قوله:**{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}** قال: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن يقول: ما أجرأهم على النار وأخرج ابن جرير، عن قتادة ونحوه وأخرج ابن جرير أيضاً عن السدي في الآية قال: هذا على وجه

الاستفهام، يقول: ما الذي أصبرهم على النار؟ وقولـه:**{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ}** قال: هم اليهود والنصارى**{لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}** قال: في عداوة بعيدة(١)

قال سيد قطب رحمه الله: والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولاً أهل الكتاب ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة، يكتمون الحق الذي يعلمونه، ويشترون به ثمناً قليلاً إما هو النفع الخاص الذي يحرصون عليه بكتمانهم للحق، والمصالح الخاصة التي يتحرونها بهذا الكتمان، ويخشون عليها من البيان وإما هو الدنيا كلها - وهي ثمن قليل حين تقاس إلى ما يخسرونه من رضى الله، ومن ثواب الآخرة

وفي جو الطعام ما حرم منه وما حل يقول القرآن عن هؤلاء:**{مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ}**

تنسيقاً للمشهد في السياق وكأنما هذا الذي يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار في بطونهم! وكأنما هم يأكلون النار! وإنها لحقيقة حين يصيرون إلى النار في الآخرة، فإذا هي لهم لباس، وإذا هي لهم طعام!

وجزاء ما كتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة، ويدعهم في مهانة وازدراء والتعبير القرآني عن هذا الإهمال وهذه المهانة وهذا الازدراء هو قولـه:

{لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ}

لتجسيم الإهمال في صورة قريبة لحس البشر وإدراكهم لا كلام ولا اهتمام ولا تطهير ولا غفران**{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**

وتعبير آخر مصور موح:**{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ}**

فكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة! ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب فما أخسرها من صفقة وأغباها! ويا لسوء ما ابتاعوا وما اختاروا! وإنها لحقيقة فقد كان الهدى مبذولاً لهم فتركوه وأخذوا الضلالة

وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب

(١) فتح القدير /٢٦.

{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ!}

فيا لطول صبرهم على النار، التي اختاروها اختياراً، وقصدوا إليها قصداً

فيا للتهكم الساخر من طول صبرهم على النار! وإنه لجزاء مكافئ لشناعة الجريمة جريمة كتمان الكتاب الذي أنزلـه الله ليعلن للناس وليحقق في واقع الأرض، وليكون شريعة ومنهاجاً فمن كتمه فقد عطله عن العمل وهو الحق الذي جاء للعمل:**{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ}**

فمن فاء إليه فهو على الهدى، وهو في وفاق مع الحق، وفي وفاق مع المهتدين من الخلق، وفي وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل

{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}

شقاق مع الحق، وشقاق مع ناموس الفطرة، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم ولقد كانوا كذلك، وما يزالون وتلحق بهم كل أمة تختلف في كتابها فلا تأخذ به جملة، وتمزقه تفاريق وعد الله الذي يتحقق على مدار الزمان واختلاف الأقوام ونحن نرى مصداقه واقعاً في هذا العالم الذي نعيش فيه [١]

* * * * *

المطلب السادس:

موقف أهل الكتاب من الإسلام وتحذير المسلمين من إطاعتهم

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٢]

قولـه عزَّ وجلَّ:**{قُلْ ياأهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بآيات الله والله شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ}** هذه الآياتُ: توبيخٌ لليهود المعاصرينَ للنَّبِيِّ ﷺ واليهود المعاصرينَ ومن كان على شاكلتهم إلى قيام الساعة، والكتابُ: التوراةُ، وآياتُ اللَّه يحتملُ أنْ يريدَ بها القُرآن، ويحتملُ

(١) الظلال صفحة /٢٦.

(٢) آل عمران: ٩٨ - ١٠١.

العلاماتِ الظاهرةَ على يَدَي النبيِّ ﷺ، وقوله سبحانه:{والله شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} وعيدٌ محضٌ، قال الطبريُّ: هاتان الآيتان:{قُلْ ياأهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بآيات الله}، وما بعدهما إلى قوله:{وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(١)، نزلتْ بسبب رَجْلٍ من اليهودِ، حاول الإغراء بَيْن الأوس والخَزْرَج

قال ابنُ إسْحَاق: حدَّثني الثِّقَةُ عَنْ زَيْدِ بنِ أسْلَم، قال: مَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ اليَهُودِيُّ، وكان شَيْخاً قَدْ عَسَا فِي الجَاهِلِيَّةِ عَظِيمَ الكُفْر، شَدِيدَ الضِّغْن على المُسْلمين، والحَسَدِ لهم؛ على نَفَرٍ مِنْ أصْحَابِ رسولِ اللّهِ ﷺ مِنَ الأوْسِ والخَزْرَج، وَهُمْ في مَجْلِسٍ يتحدَّثُونَ، فغَاظَهُ مَا رآه مِنْ جماعَتِهِمْ وصَلاَحِ بَيْنِهِمْ بَعْدَ مَا كَانَ بينَهُمْ مِنَ العَدَاوَةِ، فَقَالَ: قَدِ اجتمع مَلأ بَنِي قَيْلَة بِهَذِهِ البِلاَدِ، واللّهِ، مَا لَنَا مَعَهُمْ، إذا اجتمع مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَر فَتًى شَابًّا مِنْ يَهُودَ، فَقَالَ: اعمد إلَيْهِمْ، واجلس مَعَهُمْ، وَذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاثَ، وَمَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْ أيَّامِ حَرْبِهِمْ، وَأَنْشِدْهُمْ مَا قَالُوهُ مِنَ الشِّعْرِ فِي ذَلِكَ، فَفَعَلَ الفتى، فَتَكَلَّمَ القَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَتَفَاخَرُوا، وَتَنَازَعُوا حتى تَوَاثَبَ رَجُلاَنِ مِنَ الحَيَّيْنِ عَلَى الرُّكَبِ أوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ مِنَ الأوْسِ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ مِنَ الخَزْرَجِ، فَتَقَاوَلاَ، ثُمَّ قَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إنْ شِئْتُمْ، وَاللّهِ، رَدَدْنَاهَا الآنَ جَذَعَةً، فَغَضِبَ الفَرِيقَانِ، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا، السِّلاَحَ السِّلاَحَ! مَوْعِدُكُمُ الظَّاهِرَةُ، يُرِيدُونَ: الحَرَّةَ، فَخَرَجُوا إلَيْهَا وَتَجَاوَزَ النَّاسُ على دَعْوَاهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَخَرَجَ إلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ المُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، اللّه اللّه، أبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ، وَأنَا بَيْنَ أظْهُرِكُمْ، وَوَعَظَهُمْ، فَعَرَفَ القَوْمُ؛ أنَّهَا نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَلْقَوا السِّلاَحَ، وَبَكَوْا، وَعَانَقَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مِنَ الأوْسِ وَالخَزْرَجِ، وانصرفوا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَأَنْزَلَ اللّهُ فِي شَاسِ بْنِ قيسٍ، وما صَنَعَ هذه الآيات

وقال الحَسَنُ وغيره: نزلَتْ في أحْبَار اليَهُود الَّذِينَ يَصُدُّون المُسْلِمِينَ عَنِ الإسلام، ويَقُولُون: إن محمَّداً ليس بالموصُوفِ في كتابنا

ولا شَكَّ في وقوعِ هَذيْن الشيئَيْن، وما شاكَلَهما مِنْ أفعال اليهودِ وأقوالِهِمْ، فَنَزَلَتِ الآياتُ في جميع ذلك، ومعنى «تَبْغُونَ» أي: تطلبون لها الاعوجاجَ والانفسادَ، وأنْتُمْ شُهَدَاءُ: يريدُ جَمْعَ شاهِدٍ على ما في التوراةِ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وصِدْقِهِ، وباقِي الآية وعيدٌ

(١) آل عمران: ١٠٥.

وقولــه تعــالى:{يأيها الـذين ءامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الـذين أُوتُواْ الكتاب يَـرُدُّوكُم بَعْدَ إيمانكم كافرين} الآيـة: خطـابٌ عـامٌّ للمـؤمنين، والإشـارة بـذلك وقـتَ نزولـه إلـى الأوْسِ والخَزْرَجِ بسبب نَائِرَةِ شَاس بْنِ قَيْسٍ

قولــه تعــالى:{يَرُدُّوكُم بَعْدَ إيمانكم كافرين}، ردَّ: بمعنــى صَيَّر، فيتعدى إلـى مفعولَيْن الأول: الكافُ، والثاني: الكافِرِينَ؛ كقولـه: [الوافر]

فَـــرَدَّ شُـــعُورَهُنَّ السُّـــودَ بِيضـــاً ::: وَرَدَّ وُجُـــوهَهُنَّ الْبِـــيضَ سُـــودَا

و{يَعْتَصِمِ}: معناه: يتمسَّك، وعُصِمَ الشَّيءُ، إذا مُنِعَ وحُمِيَ؛ ومنه: قولـه:{يَعْصِمُنِي مِنَ الماء}(١) وباقي الآية بيِّن(٢)

أمر الله - سبحانه وتعالى - رسوله بتوبيخ أهل الكتاب على استمرارهم على الكفر والضلال والتضليل فقال: قل لهم: يا أهل الكتاب لا وجه لكفركم، فلأى سبب تكفرون بدلائل الله الدالة على نبوة محمد وصدقه، والله مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها

يا أهل الكتاب كيف تحاولون صرف مَن آمن بالله ورسوله وأذعن للحق عن سبيل الله الحق المستقيمة، وتحاولون أن تصوروها معوجة، وأنتم عالمون أنها حق، وليس الله غافلا عن أعمالكم وسيجازيكم عليها

وقد حذَّر المؤمنين مما يثيره بعض أهل الكتاب من شُبَهٍ قائلا: إن تطيعوا بعض أهل الكتاب فيما يبثونه من الشُّبَهِ فى دينكم تعودوا إلى الضلال بعد الهداية، ويردوكم جاحدين بعد الإيمان

وتصوروا حالكم العجيبة وأنتم تضلون وتكفرون بعد الإيمان، والقرآن يتلى عليكم، ورسول الله بينكم، يبين لكم ويدفع الشبه عن دينكم، ومن يلجأ إلى ربه ويستمسك بدينه فنعم ما فعل، فقد هداه ربه إلى طريق الفوز والفلاح

وإن باب النار مفتوح إذا لم تتقوا الله، فيأيها الذين آمنوا خافوا الله الخوف الواجب بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ودوموا على الإسلام حتى تلقوا الله (٣)

* * * * *

(١) هود: ٤٣.
(٢) تفسير الثعلبي صفحة / ٦٢.
(٣) المنتخب صفحة / ٦٢.

المطلب السابع:
المطعومات الحلال وإباحة الزواج بالكتابيات

{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (١)

{اليوم أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات وَطَعَامُ الذين أُوتُواْ الكتاب حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ}

يجيء في التقييد (باليوم) هنا ما جاء في قوله:{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ}(٢) وقوله:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} (٣)، عدا وجه تقييد حصول الفعل حقيقة بذلك اليوم، فلا يجيء هنا، لأنّ إحلال الطيّبات أمر سابق إذ لم يكن شيء منها محرّماً، ولكن ذلك اليوم كان يوم الإعلام به بصفة كليّة، فيكون كقوله:{وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً} (٤) في تعلّق قوله:{الْيَوْمَ} به، كما تقدّم

ومناسبة ذكر ذلك عقب قوله:{اليَوْمَ يَئِسَ} و{اليَوْمَ أَكْمَلْتُ} أنّ هذا أيضاً منّة كبرى لأنّ إلقاء الأحكام بصفة كلّيّة نعمة في التفقه في الدين

والكلام على الطيّبات تقدّم آنفاً، فأعيدَ ليُبنى عليه قوله:{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ} وعطفُ جملة:{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} على جملة:{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} لأجل ما في هذه الرخصة من المنّة لكثرة مخالطة المسلمين أهل الكتاب فلو حرّم الله عليهم طعامهم لشقّ ذلك عليهم

والطعام في كلام العرب ما يطعَمه المرء ويأكله، وإضافته إلى أهل الكتاب للملابسة، أي ما يعالجه أهل الكتاب بطبخ أو ذبح قال ابن عطية: الطعام الذي لا محاولة فيه كالبُرّ والفاكهة ونحوهما لا يغيّره تملّك أحد له، والطعام الذي تقع فيه محاولة صنعته لا تعلّق للدين بها كخَبز الدقيق وعصر الزيت فهذا إن تُجنِّبَ من الذميّ فعلى جهة التقذّر

(١) المائدة: ٥.
(٢) المائدة: ٣.
(٣) المائدة: ٣.
(٤) المائدة: ٣.

والتذكية هي المحتاجة إلى الدّين والنية، فلمَّا كان القياس أن لا تجوز ذبائحهم رخص الله فيها على هذه الأمّة وأخرجها عن القياس وأراد بالقياس قياس أحوال ذبائحهم على أحوالهم المخالفة لأحوالنا، ولهذا قال كثير من العلماء: أراد الله هنا بالطعام الذبائح، مع اتّفاقهم على أنّ غيرها من الطعام مباح، ولكن هؤلاء قالوا: إنّ غير الذبائح ليس مراداً، أي لأنّه ليس موضع تردّد في إباحة أكله والأولى حمل الآية على عمومها فتشمل كلّ طعام قد يظن أنَّه محرّم علينا إذ تدخله صنعتهم، وهم لا يَتَوَقَّوْنَ ما نتوقى، وتدخله ذكاتهم وهم لا يشترطون فيها ما نشترطه ودخل في طعامهم صيدهم على الأرجح

و**{الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ}**: هم أتباع التوراة والإنجيل، سواء كانوا ممّن دعاهم موسى وعيسى عليهما السلام إلى اتّباع الدين، أم كانوا ممّن اتّبعوا الدينين اختياراً؛ فإنّ موسى وعيسى ودعَوا بني إسرائيل خاصّة، وقد تهوّد من العرب أهل اليمن، وتنصّر من العرب تغلب، وبهراء، وكلب، ولخم، ونَجران، وبعض ربيعة وغسّان، فهؤلاء من أهل الكتاب عند الجمهور عدا عليّا بن أبي طالب فإنه قال: لا تحلّ ذبائح نصارى تغلب، وقال: إنّهم لم يتمسّكوا من النصرانية بشيء سوى شرب الخمر

وقال القرطبي: هذا قول الشافعي، وروى الربيع عن الشافعي: لا خير في ذبائح نصارى العرب من تغلب وعن الشافعي: من كان من أهل الكتاب قبل البعثة المحمّدية فهو من أهل الكتاب، ومن دخل في دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن فلا يقبل منه إلاّ الإسلام، ولا تقبل منه الجزية، أي كالمشركين

وأمَّا المجوس فليسوا أهل كتاب بالإجماع، فلا تؤكل ذبائحهم، وشذّ من جعلهم أهل كتاب وأمَّا المشركون وعبدة الأوثان فليسوا من أهل الكتاب دون خلاف

وحِكمة الرخصة في أهل الكتاب: لأنّهم على دين إلهي يُحرّم الخبَائث، ويتقي النجاسة، ولهم في شؤونهم أحكام مضبوطة متّبعة لا تظنّ بهم مخالفتها، وهي مستندة للوحي الإلهي، بخلاف المشركين وعبدة الأوثان وأمّا المجوس فلهم كتاب لكنّه ليس بالإلهي، فمنهم أتباع (زرَادشْت)، لهم كتابُ (الزندفستا) وهؤلاء هم محلّ الخلاف وأمّا المجوس (المَانَويَّة) فهم إباحية فلا يختلف حالهم عن حال المشركين وعبدة الأوثان، أو هم شرّ منهم وقد قال مالك: ما ليس فيه ذكاة من طعام المجوس فليس بحرام يعني إذا كانوا يتّقون النجاسة وفي «جامع الترمذي»: أنّ أبا ثعلبة الخشني سأل رسول الله ﷺ

عن قدور المجوس فقال لـه: «**أنْقُوها غسلاً واطبخوا فيها**» وفي البخاري: أنّ أبا ثعلبة سأل رسول الله ﷺ عن آنِيَة أهل الكتاب فقال لـه: «**إن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا فاغسلوها ثمّ كلوا فيها**» قال ابن العربي: «فغسل آنية المجوس فرض، وغسل آنية أهل الكتاب ندب» يُريد لأنّ الله أباح لنا طعام أهل الكتاب فقد علم حالهم، وإنّما يسري الشكّ إلى آنيتهم من طعامهم وهو مأذون فيه، ولم يبح لنا طعام المجوس، فذلك منزع التفرقة بين آنية الفريقين

ثم الطعامُ الشامل للذكاة إنّما يعتبر طعاماً لهم إذاكانوا يستحلّونه في دينهم، ويأكله أحبارهم وعلماؤهم، ولو كان ممّا ذكر القرآنُ أنّه حرّمه عليهم، لأنّهم قد تأوّلوا في دينهم تأويلات، وهذا قول مالك وأرى أنّ دليله: أنّ الآية عمّمت طعامهم فكان عمومها دليلاً للمسلمين، ولا التفات إلى ما حكَى الله أنّه حرّمه عليهم ثم أباحه للمسلمين، فكان عموم طعامهم في شرعنا مُباحاً ناسخاً للمحرّم عليهم، ولا نصِيرُ إلى الاحتجاج «بشرع من قبلنا» إلاّ إذا لم يكن لنا دليل على حُكمهِ في شرعنا وقيل: لا يؤكل ما علِمْنا تحريمه عليهم بنصّ القرآن، وهو قول بعض أهل العلم، وقيل به في مذهب مالك، والمعتمد عن مالك كراهة شحوم بقر وغنم اليهود من غير تحريم؛ لأنّ الله ذكر أنه حرّم عليهم الشحوم

ومن المعلوم أن لا تعمل ذكاة أهل الكتاب ولا إباحة طعامهم فيما حرّمه الله علينا بعينه: كالخنزير والدم، ولا ما حرّمه علينا بوصفه، الذي ليس بذكاة: كالميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وأكيلة السبع، إذا كانوا هم يستحلّون ذلك، فأمَّا ما كانت ذكاتهم فيه مخالفة لذكاتنا مخالفة تقصير لا مخالفة زيادة فذلك محلّ نظر كالمضروبة بمحدّد على رأسها فتموت، والمفتولة العنق فتتمزّق العروق، فقال جمهور العلماء: لا يؤكل

وقال أبو بكر ابن العربي من المالكية: تؤكل وقال في «الأحكام»: فإن قيل فما أكلوه على غير وجه الزكاة كالخنق وحطْم الرأس فالجواب: أنّ هذه ميتة، وهي حرام بالنصّ، وإن أكلوها فلا نأكلها نحْن، كالخنزير فإنّه حلال لهم ومن طعامهم وهو حرام علينا يريد إباحته عند النصارى ثم قال: ولقد سُئِلت عن النصراني يفتل عنق الدجاجة ثم يطبخها؛ هل تؤكل معه أو تؤخذ طعاماً منه؟ فقلت: تؤكل لأنها طعامه وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا ولكن الله تعالى أباح طعامهم مطلقاً وكلّ ما يرونه في دينهم فإنّه حلال لنا في ديننا» وأشكل على كثير من الناظرين وجه الجمع بين كلام

ابن العربي، وإنّما أراد التفرقة بين ما هو من أنواع قطع الحلقوم، والأوداج ولو بالخنق، وبين نحو الخنق لحبس النفَس، ورَضّ الرأس وقول ابن العربي شذوذ

وقوله:**{وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ}** لم يعرّج المفسّرون على بيان المناسبة بذكر**{وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ}** والذي أراه أنّ الله تعالى نبّهنا بهذا إلى التيسير في مخالطتهم، فأباح لنا طعامهم، وأباح لنا أن نُطعمهم طعَامنا، فعُلم من هذين الحكمين أنّ علّة الرخصة في تناولنا طعامهم هو الحاجة إلى مخالطتهم، وذلك أيضاً تمهيد لقوله بعد:**{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ}** لأنّ ذلك يقتضي شدّة المخالطة معهم لتزوّج نسائهم والمصَاهرة معهم

{والمحصنات مِنَ المؤمنات والمحصنات مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ متخذى أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بالإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الاخرة مِنَ الخاسرين}(١)

عُطفَ**{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ}** على**{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ}** عطفَ المفرد على المفرد ولم يعرّج المفسّرون على بيان المناسبة لذكر حِلّ المحصنات من المؤمنات في أثناء إباحة طعام أهل الكتاب، وإباحةِ تزوّج نسائهم وعندي: أنّه إيماء إلى أنّهنّ أولى بالمؤمنين من محصنات أهل الكتاب، والمقصودُ هو حكم المحصنات من الذين أوتوا الكتاب فإنّ هذه الآية جاءت لإباحة التزوّج بالكتابيات فقوله:**{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ}** عطف على**{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ}** فالتقدير: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حِلّ لكم

والمُحصنات: النسوة اللاءِ أحْصَنَهُنّ ما أحْصَنَهُنّ، أي منعهنّ عن الخنا أو عن الريب، فأطلق الإحصان: على المعصومات بعصمة الأزواج كما في قوله تعالى في سورة النساء (٢٤) عطفاً على المحرّمات**{الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ}**؛ وعلى المسلمات لأنّ الإسلام وَزَعَهن عن الخنا، قال الشاعر:

ويصدّهن عن الخنا الإسلام ::: وأطلق على الحرائر

لأنّ الحرائر يترفّعن عن الخنا من عهد الجاهلية ولا يصلح من هذه المعاني هنا الأوّل، إذ لا يحلّ تزوّج ذات الزوج، ولا الثاني لقوله:**{مِنَ المُؤْمِنَاتِ}** الذي هو ظاهر في

(١) المائدة: ٥.

أنّهنّ بعض المؤمنات فتعيّن معنى الحرية، ففسّرها مالك بالحرائر، ولذلك منع نكاح الحرّ الأمة إلاّ إذا خشي العنت ولم يجد للحرائر طوْلا، وجوّز ذلك للعبد، وكأنّه جعل الخطاب هنا للأحرار بالقرينة وبقرينة آية النساء (٢٥){وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} وهو تفسير بيِّن ملتئم وأصل ذلك لعمر بن الخطاب ومجاهد ومن العلماء من فسّر المحصنات هنا بالعفائف، ونقل عن الشعبي وغيره، فمنعوا تزوّج غير العفيفة من النساء لرقّة دينها وسوء خلقها

وكذلك القول في تفسير قوله:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ} أي الحرائر عند مالك، ولذلك منع نكاح إماء أهل الكتاب مطلقاً للحرّ والعبد والذين فسّروا المحصنات بالعفائف منعوا هنا ما منعوا هناك

وشمل أهلُ الكتاب: الذمّيّن، والمعاهدين، وأهل الحرب، وهو ظاهر، إلاّ أنّ مالكاً كره نكاح النساء الحربيّات، وعن ابن عبّاس: تخصيص الآية بغير نساء أهل الحرب، فمنع نكاح الحربيات ولم يذكروا دليله

والأجور: المهور، وسمَّيت هنا (أجوراً) مجازاً في معنى الأعْواض عن المنافع الحاصلة من آثار عُقدة النكاح، على وجه الاستعارة أوْ المجاز المرسل والمَهْر شِعار متقادم في البشر للتفرقة بين النكاح وبين المخادنة ولو كانت المهور أجوراً حقيقة لوجب تحْديد مدّة الانتفاع ومقداره وذلك مِمَّا تنزّه عنه عقدة النكاح

والقول في قوله:{مُحْصِنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} كالقول في نظيره:{مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ} (١)

وجملة{وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} معترضة بين الجمل والمقصود التنبيه على أنّ إباحة تزوّج نساء أهل الكتاب لا يقتضي تزكية لحالهم، ولكن ذلك تيسير على المسلمين وقد ذُكر في سبب نزولها أنّ نساء أهل الكتاب قلن «لولا أنّ الله رضي ديننا لم يبح لكم نكاحنا» والمرادُ بالإيمان الإيمانُ المعهود وهو إيمان المسلمين الذي بسببه لُقبوا بالمؤمنين، فالكفر هنا الكفر بالرسل، أي: ينكر الإيمان، أي ينكر ما يقتضيه الإيمان من المعتقدات، إذ الإيمان صار لَقباً لمجموع ما يجب التصديق به

(١) النساء: ٢٥.

والحبْط بسكون الموحّدة والحُبوط: فساد شيء كان صالحاً، ومنه سمّي الحَبَط بفتحتين مرض يصيب الإبل من جرّاء أكل الخَضِر في أوّل الربيع فتنتفخ أمعاؤها وربما ماتت وفعل (حَبِط) يؤذن بأنّ الحابط كان صالحاً فانقلب إلى فساد والمراد من الفساد هنا: الضياع والبطلان، وهو أشدّ الفساد، فدلّ فعل (حبط) على أنّ الأعمال صالحة، وحُذف الوصف لدلالة الفعل عليه وهذا تشبيه لضياع الأعمال الصالحة بفَساد الذواتِ النافعة، ووجه الشبه عدم انتفاع مكتسبها منها والمراد ضياع ثوابها وما يترقّبه العامل من الجزاء عليها والفوْز بها

والمراد: التحذير من الارتداد عن الإيمان، والترغيبُ في الدخول فيه كذلك، ليعلم أهل الكتاب أنّهم لا تنفعهم قرباتهم وأعمالهم، ويعلم المشركون ذلك[١]

* * * * *

المطلب الثامن:

نقض أهل الكتاب المواثيق والعهود الدينية

{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[٢]

قال الفخر الرازي: قوله - تعالى:**{وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ الله إِنِّي مَعَكُمْ}** اعلم أن في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه:

الأول: أنه - تعالى - خاطب المؤمنين فيما تقدم فقال:**{واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الذي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}** ثم ذكر الآن أنه أخذ الميثاق من بني إسرائيل لكنهم

(١) تفسير ابن عاشور: ١٠٧.

(٢) المائدة: ١٢ - ١٤.

نقضوه وتركوا الوفاء به، فلا تكونوا - أيها المؤمنون - مثلهم في هذا الخلق الذميم

الثاني: أنه لما ذكر قوله:**{اذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ}** وقد ذكرت بعض الروايات أنها نزلت في اليهود، وأنهم أرادوا إيقاع الشر بالمؤمنين فلما ذكر - سبحانه - ذلك أتبعه بذكر فضائحهم، وبيان أنهم كانوا أبدا مواظبين على نقض العهود والمواثيق

الثالث: أن الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكاليف وترك التمرد والعصيان فذكر - سبحانه - أنه كلف من كان قبل المسلمين كما كلفهم ليعلموا أن عادة الله في التكليف والإلزام غير مخصوصة بهم، بل هي عادة جارية له مع جميع عباده(١)

فالآن يستغرق هذا الدرس كله في استعراض مواقف أهل الكتاب من مواثيقهم؛ واستعراض ما حل بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق؛ لتكون هذه - من جانب - تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ، ومن واقع أهل الكتاب قبلهم، وليكشف الله - من جانب - عن سنته التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً ومن الجانب الثالث ليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم؛ وذلك لإبطال كيدهم في الصف المسلم؛ وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم؛ التي يلبسونها ثوب التمسك بدينهم؛ وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل؛ ونقضوا ما عاهدوا الله عليه

ويحتوى هذا الدرس على استعراض ميثاق الله مع قوم موسى، عند إنقاذهم من الذل في مصر؛ ثم نقضهم لهذا الميثاق؛ وما حاق بهم نتيجة نقضهم له؛ وما أصابهم من اللعنة والطرد من مجال الهدى والنعمة وعلى استعراض ميثاق الله مع الذين قالوا: إنا نصارى ونتيجة نقضهم له من إغراء العداوة بين فرقهم المختلفة إلى يوم القيامة ثم على استعراض موقف اليهود أمام الأرض المقدسة التي أعطاهم الله ميثاقه أن يدخلوها، فنكصوا على أعقابهم وجبنوا عن تكاليف ميثاق الله معهم وقالوا لموسى:**{فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}**

ويتخلل هذا الاستعراض للمواثيق ومواقف أهل الكتاب منها، كشف لما وقع في عقائد اليهود والنصارى من انحراف نتيجة نقضهم لهذه المواثيق؛ التي عاهدهم الله فيها

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة: ١٠٩.

على توحيده والإسلام لـه؛ في مقابل ما أعطاهم من النعم، وما ضمن لهم من التمكين؛ فأبوا ذلك كله على أنفسهم؛ فباؤوا باللعنة والفرقة والتشريد

كذلك يتضمن دعوتهم من جديد إلى الهدى الهدى الذي جاءتهم به الرسالة الأخيرة؛ وجاءهم به الرسول الأخير ودحض ما قد يدعونه من حجة في أنه طال عليهم الأمد، ومرت بهم فترة طويلة منذ آخر أنبيائهم، فنسوا ولبس عليهم الأمر فها هو ذا قد جاءهم بشير ونذير فسقطت الحجة، وقام الدليل

ومن خلال هذه الدعوة، تتبين وحدة دين الله - في أساسه - ووحده ميثاق الله مع جميع عباده: أن يؤمنوا به، ويوحدوه، ويؤمنوا برسله دون تفريق بينهم، وينصروهم، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وينفقوا في سبيل الله من رزق الله فهو الميثاق الذي يقرر العقيدة الصحيحة، ويقرر العبادة الصحيحة، ويقرر أسس النظام الاجتماعي الصحيح

فالآن نأخذ في استعراض هذه الحقائق كما وردت في السياق القرآني الكريم: **{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**(١)

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}(٢)

لقد كان ميثاق الله مع بني إسرائيل ميثاقاً بين طرفين؛ متضمناً شرطاً وجزاء والنص القرآني يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه، بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده لقد كان عقداً مع نقباء بني إسرائيل الاثني عشر، الذين يمثلون فروع بيت يعقوب - وهو إسرائيل - وهم ذرية الأسباط - أحفاد يعقوب - وعدتهم اثنا عشر سبطاً وكان هذا

(١) المائدة: ١٢، ١٣.
(٢) المائدة: ١٤.

نصه:

{وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}(١)

{إِنِّي مَعَكُم} وهو وعد عظيم فمن كان الله معه، فلا شيء إذن ضده ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود - في الحقيقة - لـه ولا أثر ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، فإن معية الله - سبحانه - تهديه كما أنها تكفيه ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن، وقد وصل، وما لـه زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم

ولكن الله - سبحانه - لم يجعل معيته لهم جزافاً ولا محاباة؛ ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده إنما هو عقد فيه شرط وجزاء

شرطه: إقامة الصلاة لا مجرد أداء الصلاة إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب؛ وعنصراً تهذيبياً وتربوياً وفق المنهج الرباني القويم؛ وناهياً عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر!

وإيتاء الزكاة اعترافاً بنعمة الله في الرزق؛ وملكيته ابتداء للمال؛ وطاعة لـه في التصرف في هذا المال وفق شرطه - وهو المالك والناس في المال وكلاء - وتحقيقاً للتكافل الاجتماعي الذي على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن؛ وإقامة لأسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذي يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء، وألا يكون تكدس المال في أيد قليلة سبباً في الكساد العام بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك مما ينتهي إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئته؛ كما يفضي إلى الترف في جانب والشظف في جانب، وإلى الفساد والاختلال في المجتمع بشتى ألوانه

كل هذا الشر الذي تحول دونه الزكاة؛ ويحول دونه منهج الله في توزيع المال؛ وفي دورة الاقتصاد

(١) المائدة: ١٢.

والإيمان برسل الله كلهم دون تفرقة بينهم فكلهم جاء من عند الله؛ وكلهم جاء بدين الله وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعاً، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعاً

وليس هو مجرد الإيمان السلبي، إنما هو العمل الإيجابي في نصرة هؤلاء الرسل، وشد أزرهم فيما ندبهم الله لـه، وفيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض لينصر ما آمن به، وليقيمه في الأرض، وليحققه في حياة الناس فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادي، ولا مجرد شعائر تعبدية إنما هو منهج واقعي للحياة ونظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة والمنهج والنظام في حاجة إلى نصرة، وتعزير، وإلى جهد وجهاد لتحقيقه ولحمايته بعد تحقيقه وإلا فما وفى المؤمن بالميثاق

وبعد الزكاة إنفاق عام يقول عنه الله - سبحانه - إنه قرض لله والله هو المالك، وهو الواهب ولكنه - فضلاً منه ومنة - يسمي ما ينفقه الموهوب لـه - متى أنفقه لله - قرضاً لله

ذلك كان الشرط فأما الجزاء فكان: تكفير السيئات والإنسان الذي لا يني يخطىء، ولا يني يندفع إلى السيئة مهما جاء بالحسنة تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم ورحمة من الله واسعة، وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره

وجنة تجري من تحتها الأنهار وهي فضل خالص من الله، لا يبلغه الإنسان بعمله، إنما يبلغه بفضل من الله، حين يبذل الجهد، فيما يملك وفيما يطيق

وكان هنالك شرط جزائي في الميثاق:**{فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}**

فلا هدى لـه بعد ذلك، ولا أوبة لـه من الضلال بعد إذ تبين لـه الهدى، وتحدد معه العقد، ووضح لـه الطريق، وتأكد لـه الجزاء

ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بني إسرائيل عمن وراءهم وقد ارتضوه جميعاً؛ فصار ميثاقاً مع كل فرد فيهم، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم فماذا كان من بني إسرائيل!

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله فقتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام - وهو آخر أنبيائهم - وحرفوا كتابهم - التوراة - ونسوا شرائعها فلم ينفذوها، ووقفوا من خاتم الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - موقفاً لئيماً ماكراً عنيداً، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه فباؤوا بالطرد من هدى الله، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة

لاستقبال هذا الهدى

{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظاًّ مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}

وصدق الله فهذه سمات يهود التي لا تفارقهم

لعنة تبدو على سيماهم، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية وقسوة تبدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفي تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية، ومهما حاولوا - مكراً - إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعومة في الملمس عند الكيد والوقيعة، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشي بجفاف القلوب والأفئدة وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه تحريف كتابهم أولاً عن صورته التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام - إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مزورة على الله! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث! ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الله الطاهر النظيف القويم

{ولا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ}

وهو خطاب للرسول ﷺ يصور حال يهود في المجتمع المسلم في المدينة فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه في المدينة - ثم في الجزيرة كلها - وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه ولكنهم كانوا دائماً - كما كانوا على عهد الرسول - عقارب وحيات وثعالب وذئاباً تضمر المكر والخيانة، ولا تني تمكر وتغدر إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة لا يرحمونهم، ولا يرعون فيهم إلا ولا ذمة أكثرهم كذلك كما وصفهم الله سبحانه في كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التي

أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ في المدينة، تعبير طريف:

{وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ}

الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة «خائنة» لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقي ظلالها وحدها على القوم فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم، مع الرسول ﷺ ومع الجماعة المسلمة

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}

ونجد هنا تعبيراً خاصاً ذا دلالة خاصة:

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى}

ودلالة هذا التعبير: أنهم قالوها دعوى، ولم يحققوها في حياتهم واقعاً ولقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد الله وهنا كانت نقطة الانحراف الأصيلة في خط النصرانية التاريخي وهذا هو الحظ الذي نسوه مما ذكروا به؛ ونسيانه هو الذي قاد بعد ذلك إلى كل انحراف كما أن نسيانه هو الذي نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفرق، التي لا تكاد تعد في القديم وفي الحديث (كما سنبين إجمالاً بعد قليل) وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة جزاء وفاقاً على نقض ميثاقهم معه، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم الله بما كانوا يصنعون؛ وعندما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون!

ولقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله - سبحانه - في كتابه الصادق الكريم؛ وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله

سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة؛ أو بسبب الخلافات

على الرياسة الدينية؛ أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات وهي ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين، جزاء على نقضهم ميثاقهم، ونسيانهم حظا مما ذكروا به من عهد الله، وأول بند فيه هو بند التوحيد، الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح عليه السلام لأسباب لا مجال هنا لعرضها بالتفصيل

وحين يبلغ السياق هذا الموضع من استعراض موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع الله وجهوا الخطاب لأهل الكتاب جميعاً هؤلاء وهؤلاء لإعلانهم برسالة خاتم النبيين؛ وإنها جاءت إليهم - كما جاءت للعرب الأميين، وللناس أجمعين فهم مخاطبون بها، مأمورون باتباع الرسول الأخير - وهذا طرف من ميثاق الله معهم كما سلف - وأن هذا الرسول الأخير قد جاء يكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من الكتاب الذي بين أيديهم؛ والذي استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه؛ ويعفو كذلك عن كثير مما أخفوه، ولم تعد هناك ضرورة له في الشريعة الجديدة ثم يتعرض لبعض الانحرافات التي جاء الرسول الأخير ليقومها في معتقداتهم: كقول النصارى: إن المسيح عيسى ابن مريم هو الله وكقولهم هم واليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه ويختم هذا النداء بأنه لن تكون لهم حجة عندالله بعد الرسالة الكاشفة المبينة المنيرة؛ ولن يكون لهم أن يقولوا: إنه مرت عليهم فترة طويلة بعد الرسالات فنسوا ولبس الأمر عليهم(١)

* * * * *

(١) الظلال صفحة: ١٠٩ /المكتبة الإلكترونية الشاملة.

المطلب التاسع:

العلاقة مع غير المؤمنين

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}(١)

قال الآلوسي: أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله - تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا}**

والدين: هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة فهو عنوان عقل المتدين، ورائد آماله، وباعث أعماله والذي يتخذ دين امرئ هزوا ولعبا، فقد اتخذ ذلك المتدين بهذا الدين هزوا ولعبا

وقوله:**{هُزُواً}** أي سخرية يقال: فلان هزئ من فلان إذا سخر منه، واستخف به وأصله هزءاً، فأبدلت الهمزة واوا لضم ما قبلها

وقوله:**{لَعِباً}** أي ملهاة وعبثا وأصله من لعاب الطفل يقال عن الطفل لعب - بفتح العين - إذا سال لعابه

والمعنى: يأيها الذين اتصفوا بالإيمان**{لاَ تَتَّخِذُواْ الذين اتخذوا دِينَكُمْ}** الذي هو سر سعادتكم وعزتكم**{هُزُواً وَلَعِباً}** أي: اتخذوه مادة لسخريتهم وتهكمهم، وموضعا لعبثهم ولهوهم

و**{مِّنَ}** في قوله:**{مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ والكفار أَوْلِيَآءَ}** بيانية

(١) المائدة: ٥٧ - ٦٣.

أي: مبينة لأولئك الذين يستهزئون بدين الله ويجعلونه موضع عبثهم

والمراد بالذين أوتوا الكتاب: اليهود والنصارى

وسموا بذلك؛ لأن أصل شرعهم ينتمي إلى كتاب منزل هو التوراة والإنجيل

وفي وصفهم بذلك هنا، توبيخ لهم، حيث إنهم استهزؤوا بالدين الحق، مع أن كتابهم ينهاهم عن ذلك

والمراد بالكفار هنا المشركون الذين لا كتاب لهم

وقرأ الجمهور: **{وَالْكُفَّارَ}** بالنصب عطفا على **{الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ}** المبين بقوله: **{مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب}**

وقرأ أبو عمرو والكسائي (الكفار) بالجر عطفا على **{مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ}**

وقرأ: **{أَوْلِيَاءَ}** أي: نصراء وأصفاء وهو المفعول الثاني لقوله **{لاَ تَتَّخِذُواْ}** والآية الكريمة تنهى المؤمنين عن ولاية كل عدو لله - تعالى - ولهم سواء أكان هذا العدو من أهل الكتاب أم من المشركين؛ لأن الجميع يشتركون في الاستهزاء بتعاليم الإسلام، وفي العبث بشعائره

وقوله: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}** تذييل قصد به استنهاض همتهم لامتثال أمر الله - تعالى - وإلهاب نفوسهم حتى يتركوا موالاة أعدائهم بسرعة ونشاط

أي: واتقوا الله في سائر ما أمركم به وما نهاكم عنه، فلا تضعوا موالاتكم في غير موضعها، ولا تخالفوا لله أمراً إن كنتم مؤمنين حقا، ممتثلين صدقا، فإن وصفكم بالإيمان يحتم عليكم الطاعة التامة لله رب العالمين

قال سيد قطب رحمه الله:

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية؛ وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل في معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء

ذلك الواقع الجديد الذي تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلةٍ، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين، إذا كانت المعركة مع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان؛ حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعاً أهل دين! - ناسين تعليم القرآن كله؛ وناسين تعليم التاريخ كله

فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:{هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً} وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً ورداءً وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال

مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذي شردوا العرب المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان في الحبشة والصومال وأريتريا والجزائر، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان!

ثم يظهر بيننا من يظن - في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة - أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين!

إن هؤلاء لا يقرؤون القرآن وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام؛ فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض؛ تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس الموقف الذي لا يمكن تبديله لأنه الموقف الطبيعي الوحيد!

وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني، لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**

هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة:**{الَّذِينَ آمَنُوا}**

ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينه وبعض أهل الكتاب - وبخاصه اليهود - فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبة وكان هذا كله طبيعياً مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله؛ بكل صنوف الكيد

ونزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية فهذه صفة المسلم دائماً ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

بعضهم أولياء بعض إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة لقد ولي بعضهم بعضاً في حرب محمد ﷺ والجماعة المسلمة في المدينة وولي بعضهم بعضاً في كل فجاج الأرض، على مدار التاريخ ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة؛ ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم، في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد واختيار الجملة الإسمية على هذا النحو بعضهم أولياء بعض ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل!

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف «الإسلام» وينضم إلى الصف الآخر لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية:

{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}

وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله في زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم:

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

لقد كان هذا تحذيراً عنيفاً للجماعة المسلمة في المدينة ولكنه تحذير ليس مبالغاً فيه فهو عنيف نعم؛ ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى - وبعضهم أولياء بعض - ثم يبقى له إسلامه وإيمانه، وتبقى له عضويته في الصف المسلم، الذين يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فهذا مفرق الطريق

وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينة وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام؛ وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام؛ ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف - أول ما تستهدف - إقامة نظام واقعي في الأرض فريد؛ يختلف عن كل الأنظمة الأخرى؛ ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم الذي لا أرجحة فيه ولا تردد بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس بعد رسالة محمد ﷺ وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه منهج متفرد ؛ لا نظير له بين سائر المناهج ؛ ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر؛ ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر ؛ ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ؛ ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه الاعتقادية والاجتماعية ؛ لم يأل في ذلك جهداً ولم يقبل من منهجه بديلاً ولا في جزء منه صغير ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي ولا في نظام اجتماعي ولا في أحكام تشريعية إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو وحده الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الله الذي رضيه للناس ؛ في وجه العقبات الشاقة والتكاليف المضنية والمقاومة العنيدة والكيد الناصب والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان وإلا فما العناء في أمر يغني عنه غيره مما هو قائم في الأرض من جاهلية سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية الشرك أو في انحراف أهل الكتاب أو في الإلحاد السافر، بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة ؛ يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل

الأديان السماوية يخطؤون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله والتسامح يكون في المعاملات الشخصية لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلا ؛ ولا يقبل فيه تعديلاً ولو طفيفا هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر**{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ}** **{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}** **{وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ}** **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}** وفي القرآن كلمة الفصل ولا على المسلم من تميع المتميعينً وتمييعهم لهذا اليقين ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة ؛ والتي ينزل القرآن من أجلها بهذا التحذير فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة (١)

ثم ذكر - سبحانه - بعض مظاهر استهزاء أولئك الضالين بالدين وشعائره، فقال تعالى:**{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً}**

والمراد بالنداء للصلاة: الإعلام بها عن طريق الأذان

قال القرطبي: كان إذا أذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود: قاموا لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا

وقالوا في حق الأذان: لقد ابتدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمحه من أمر

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله:**{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً}** قال: كان رجل من النصارى بالمدينة، إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرف الكاذب فدخل خادمه ليلاً من الليالي بنار، وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت فاحترق هو وأهله

وقيل: كان المنافقون يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيراً للناس منها

أي: وإذا ناديتم - أيها المؤمنون - بعضكم بعضا إلى الصلاة عن طريق الأذان،

(١) الظلال صفحة: ١٠٧/المكتبة الإلكترونية الشاملة.

اتخذ هؤلاء الضالون الصلاة والمناداة بها موضعا لسخريتهم وعبثهم وتهكمهم

واسم الإشارة في قوله:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ} يعود إلى ما كان منهم من استهزاء وسخرية

أي: ذلك الذي صدر عنهم من استهزاء وعبث سببه أنهم قوم سفهاء جهلاء، لا يدركون الأمور على وجهها الصحيح، ولا يستجيبون للحق الذي ظهر لهم بسبب عنادهم وأحقادهم

قال ابن كثير: هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروي، يتخذونها هزوا يستهزؤون بها، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد

كما قال القائل

وكم من عائب قولا صحيحا ::: وآفته من الفهم السقيم

وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين تحذيرا شديدا من موالاة أعدائه عقب ذلك بتوبيخ أهل الكتاب على عنادهم وحسدهم، ووصفهم بجملة من الصفات القبيحة التي ينأى عنها العقلاء وأصحاب المروءة فقال - تعالى:{قُلْ ياأهل الكتاب هَلْ تَنقِمُونَ}

قال القرطبي: قال ابن عباس: " جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل - عليهم السلام - فقال: نؤمن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله: ونحن له مسلمون " فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شراً من دينكم فنزلت هذه الآية وما بعدها

وتنقمون معناه: تسخطون وقيل تكرهون وقيل تنكرون والمعنى متقارب يقال: نقم من كذا ينقم ونقم ينقم والأول أكثر وفي التنزيل وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد وانتقم منه أي: عاقبة: والاسم النقمة والجمع نقم

والاستفهام، للإنكار والتعجب من حالهم حيث يعيبون على المؤمنين ما هو المدح والثناء والتكريم

والمعنى: قل يا محمد على سبيل التوبيخ لأهل الكتاب، والتعجيب من أحوالهم قل لهم:{يَا أَهْلَ الكِتَابِ} يا من كتابكم عرفكم مواطن الذم{هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا} أي: ما تعيبون وتنكرون وتكرهون منا{إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ} الذي يجب الإيمان به، والخضوع له، لأنه الخالق لكل شيء، وآمنا بما أنزل إلينا من القرآن الكريم وآمنا بما أنزل من قبل من كتب سماوية كالتوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك من الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه قبل إنزال القرآن الكريم

ولا شك أن إيماننا بذلك لا يعاب ولا ينكر، بل يمدح ويشكر، ولكن لأن{أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} - أي: خارجون عن دائرة هذا الإيمان الحق - كرهتم منا ذلك، وأنكرتموه علينا، وحسدتمونا على توفيق الله إيانا لما يحبه ويرضاه

وقال الجمل ما ملخصه: وقوله:{إِلاَّ أَنْ آمَنَّا} مفعول لقوله:{تَنقِمُونَ} بمعنى تكرهون

وهو استثناء مفرغ وقوله:{مِنَّا} متعلق به أي ما تكرهون من جهتنا إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وأصل نقم أن يتعدى بعلى تقول: نقمت عليه بكذا وإنما عدي هنا بمن؛ لتضمنه معنى تكرهون وتنكرون

وقوله:{وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} يحتمل أن يكون في محل رفع أو نصب أو جر فالرفع على أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أي: وفسقكم ثابت عندكم، لأنكم علمتم أنا على الحق وأنكم على الباطل إلا أن حب الرياسة وجمع الأموال حملكم على العناد

والنصب على أن يكون معطوفا على قوله:{أَنْ آمَنَّا} ولكن الكلام فيه مضاف محذوف لفهم المعنى والتقدير: واعتقاد أن أكثرهم فاسقون وهو معنى واضح فإن الكفار ينقمون اعتقاد المؤمنين أنهم - أي الكفار - فاسقون - أي: ما تعيبون منا إلا إيماننا بالله وما أنزل إلينا واعتقادنا أن أكثركم فاسقون

وأما الجر فعلى أن يكون معطوفاً على علة محذوفة والتقدير: ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل

لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم شهواتكم

هذا ومن بلاغة القرآن الكريم، وإنصافه في الأحكام، واحتراسه في التعبير أنه لم يعمم الحكم بالفسق على جميعهم بل جعل الحكم بالفسق منصباً على الأكثرين منهم، حتى

يخرج عن هذا الحكم القلة المؤمنة من أهل الكتاب

وشبيه بهذا قوله في آية أخرى:**{مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ}** قال بعض العلماء: في الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر، موجبا للنقمة، مع كونه في نفسه موجباً للقبول والرضا وهذا مما تقصد العرب في مثله تأكيد النفي والمبالغة فيه بإثبات شيء وذلك الشيء لا يقتضي إثباته فهو منتف أبداً ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس فمن الأول قول القائل:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ::: بهن فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر:

فتى كملت أخلاقه غير أنه ::: جواد، فما يبقى من المال باقياً

ومن الثاني هذه الآية وما يشبهها أي: ما ينبغي لهم أن ينقموا شيئاً إلا هذا، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئاً إذاً فليس هناك شيء ينقمونه، وما دام الأمر كذلك، فينبغي لهم أن يؤمنوا ولا يكفروا وفيه أيضاً تقريع لهم حيث قابلوا الإحسان بسوء الصنيع

ثم تابع - سبحانه - التهكم بهم، وتعجب الناس من أفن رأيهم، مع تذكيرهم بسوء مصيرهم فقال::**{قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله}**؟

والمشار إليه بقوله:**{ذَلِكَ}** يعود إلى ما نقمه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله وبالكتب السماوية وقيل يعود إلى الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب المعبر عنها بقوله:**{وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}** وتوحيد اسم الإشارة لكونه يشار به إلى الواحد وغيره أو لتأويله بالمذكور ونحوه

والخاطب لأهل الكتاب المتقدم ذكرهم وقيل للكفار مطلقاً، وقيل للمؤمنين

والمثوبة: مصدر بمعنى الثواب الثابت على العمل، وأكثر استعمالها في الخير

وقد استعملت هنا بمعنى العقوبة على طريقة التهكم بهم كما في قوله - تعالى:**{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** وهي منصوبة على أنها تمييز لقوله:**{بشر}**

وقوله:**{مَن لَّعَنَهُ الله}** خبر لمبتدأ محذوف أي: هو من لعنه الله: والمراد اليهود لأن الصفات التي ذكرت في الآية لا تنطبق إلا عليهم

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية والذين قالوا لكم: ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شرا من دنيكم قل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم: هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو من**{لَّعَنَهُ اللهُ}** أي أبعده من رحمته**{وَغَضِبَ عَلَيْهِ}** بأن منع عنه رضاه**{وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ}** بأن مسخ بعضهم قردة وبضعهم خنازير وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: من عبد كل معبود باطل من دون الله كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة التي ابتعوها بسبب طغيانهم وفساد نفوسهم

فإن قيل: إن قوله:**{قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً}** يفيد أن ما عابه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله فيه شر إلا أن ما عليه اليهود أشد شراً، مع أن إيمان المؤمنين لا شر فيه ألبتة بل هو عين الخير فكيف ذلك؟

فالجواب، أن الكلام مسوق على سبيل المشاكلة، والمجاراة لتفكير اليهود الفاسد، وزعمهم الباطل، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه ﷺ : إن هؤلاء اليهود - يا محمد - ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية ويعتبرون ذلك شراً - مع أنه عين الخير - قل لهم على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة:

لئن كنتم تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شرا لا خير فيه - في زعمكم فشر منه عاقبة ومآلاً ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله، وما أصاب أسلافكم من مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، وما عرف عنكم من عبادة لغير الله وشبيه بهذه الآية في مجاراة الخصم في زعمه قوله - تعالى:**{وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}** وقوله:**{أولئك شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السبيل}** بيان لسوء عاقبتهم وقبح مكانتهم

أي: أولئك المتصفون بما ذكر من الفسوق واللعن والطرد من رحمة الله أولئك المتصفون بذلك**{شَرٌّ مَّكَاناً}** من غيرهم وأكثر ضلالا عن طريق الحق المستقيم من سواهم، فهم في الدنيا يشركون بالله، وينتهكون محارمه وفي الآخرة مأواهم النار وبئس القرار

وقوله:**{أُوْلَئِكَ}** مبتدأ وقوله:**{شَرٌّ}** خبره، وقوله:**{مَّكَاناً}** تمييز محول عن الفاعل

وأثبت - سبحانه - الشرية لمكانهم ليكون أبلغ في الدلالة على كثرة شرورهم، إذ أن إثبات الشرية لمكان الشيء كناية عن إثباتها للشيء نفسه فكأن شرهم قد أثر في مكانهم، أو عظم وضخم حتى صار متجسما

وقوله:{وَأَضَلُّ} معطوف على{شَرٌّ} مقرر له والمقصود من صيغتي التفضيل في قوله:{أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ} الزيادة مطلقا من غير نظر إلى مشاركة غيرهم في ذلك أو بالنسبة إلى غيرهم من الكفار الذين لم يفجروا فجورهم، ولم يحقدوا على المؤمنين حقدهم

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نفاقهم وخداعهم فقال:{وَإِذَا جَآءُوكُمْ قالوا آمَنَّا وَقَدْ دَّخَلُواْ بالكفر وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ}

قال الآلوسي: نزلت كما قال قتادة والسدى - في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ فيظهرون له الإيمان والرضا بما جاء به نفاقا

والخطاب للنبي ﷺ وأصحابه

والضمير في:{جَاءَكُم} يعود على اليهود المعاصرين للنبي ﷺ

أي: وإذا جاء إليكم - أيها المؤمنون - أولئك اليهود أظهروا أمامكم الإسلام، وقالوا لكم: آمنا بأنكم على حق، وحالهم وحقيقتهم أنهم قد دخلوا إليكم وهم متلبسون بالكفر، وخرجوا من عندكم وهم متلبسون به - أيضاً - فهم يدخلون عليكم ويخرجون من عندكم وقلوبهم كما هي لا تتأثر بالمواعظ التي يلقيها الرسول ﷺ لأنهم قد قست قلوبهم، وفسدت نفوسهم

وقوله:{وَقَدْ دَّخَلُواْ بالكفر وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ} جملتان في موضع الحال من ضمير الجمع في{قَالُوا}

والباء في قوله:{بِالْكُفْرِ} وقوله:{بِهِ} للملابسة أي: دخلوا وخرجوا وهم متلبسون بالكفر من غير نقصان منه ولا تغيير فيه ألبتة

قال الفخر الرازي: وذكر عند الدخول كلمة{قَدْ} وذكر عند الخروج كلمة:{هُمْ} لأن الفائدة من ذكر كلمة{قَدْ} تقريب الماضي من الحال والفائدة من ذكر كلمة:{هُمْ} التأكيد في إضافة الكفر إليهم، ونفي أن يكون للنبي ﷺ في ذلك فعل، أي: لم يسمعوا منك يا

محمد عند جلوسهم معك ما يوجب كفرا، فتكون أنت الذي ألقيتهم في الكفر، بل هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم

ويبدو لنا أنه عبر عن دخولهم بقوله:**{وَقَدْ دَّخَلُواْ بالكفر}** وعبر عن خروجهم بقوله:**{وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ}** بإضافة ضميرهم مع قد، للإشارة إلى أنهم عند خروجهم كانوا أشد كفراً، وأقسى قلوبا منهم عند دخولهم

وهذا شأن الجاحدون المنافقون، لا تؤثر فيهم العظات مهما كانت بليغة، ولا النذر مما كانت قوية، بخلاف قلوب المؤمنين فإن المواعظ تزيدها يقينا على يقينها، وإيمانا على إيمانها ألا ترى إلى قوله - تعالى:**{وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ}** وقوله - تعالى:**{والله أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ}** وعيد شديد لهم على كفرهم ونفاقهم

أي: والله - تعالى - أعلم بما كانوا يخفونه من نفاق وخداع عند دخولهم وعند خروجهم، لأنه - سبحانه - لا تخفى عليه خافية من أحوالهم

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من رذائلهم فقال:**{وترى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإثم والعدوان وَأَكْلِهِمُ السحت}**

والرؤية في قوله:**{وترى}** بصرية

والإثم: هو كل قول أو عمل لا يرضاه الله - تعالى

والعدوان: مجاوزة الحد في الظلم والتعدي والسحت: هو المال الحرام كالرشوة وغيرها

أي: وترى - أيها الرسول الكريم أو أيها السامع - كثيراً من هؤلاء اليهود، يسارعون في ارتكاب الآثام وفي التعدي والظلم وأكل المال الحرام بدون تردد أو تريث والتعبير بقوله:**{وترى}** يفيد أن ارتكابهم لهذه المنكرات لم يكن خافياً أو مستوراً، وإنما هم يرتكبونها مجاهرة وعلانية، لأن فضيلة الحياء قد نضبت من جوههم

والمسارعة في الشيء: المبادرة إليه بسرعة وخفة ونشاط، وأكثر استعمالها في الخير كما قال - تعالى:**{أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات}** **{نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات}** وقد

استعملت هنا في مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، للإشارة إلى أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات وكأنهم محقون فيها

والتعدية بحرف{في} تؤذن بأنهم مغمورون في الآثام؛ وأنهم ينتقلون فيها في حال إلى حال أخرى شر منها، حتى لكأن السير في طريق الحق والصدق والفضيلة صار غير مألوف عندهم

وقوله:{لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} تذييل قصد به تقبيح أعمالهم التي يأباها الدين والخلق الكريم

أي: لبئس شيئا كانوا يعملونه هذه المنكرات التي منها مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت

وهذه الجملة هي حكم من الله - تعالى - عليهم بذم أعمالهم وقد جمع - سبحانه - في حكمه بين صيغة الماضي{كانوا} وصيغة المضارع{يعملون} للإشارة إلى أن هذا العمل القبيح كان منهم في الماضي، وأنهم قد استمروا عليه في حاضرهم ومستقبلهم بدون توبة أو ندم

وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم بالقسم، وباللام الموطئة للقسم، وبكلمة بئس الدالة على شدة الذم أي: أقسم لبئس العمل الذي كان هؤلاء يعملونه من مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت

ثم وبخ - سبحانه - رؤساء هؤلاء اليهود على سكوتهم على المنكر فقال:

{لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الربانيون والأحبار عَن قَوْلِهِمُ الإثم وَأَكْلِهِمُ السحت}

و{لولا} هنا للحض على الفعل في المستقبل، وللتوبيخ على تركه في الماضي فهي لتوبيخ علماء اليهود على تركهم فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الماضي ولحضهم على مباشرتهم في المستقبل وهي هنا بمعنى هلا

والربانيون: كما يقول ابن جرير - جمع رباني وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس، وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم

والأحبار - جمع حبر - وهم علماء اليهود وفقهاؤهم المفسرون لما ورد في التوراة من أقوال وأحكام

والمعنى: إن هؤلاء دأبهم المسارعة إلى اقتراف الآثام وإلى أكل المال الحرام، فهلا ينهاهم علماؤهم عن هذه الأقوال الكاذبة الباطلة، وعن تلك المآكل الخبيثة التي أكلوها عن طريق السحت

والسحت - كما سبق أن بينا - هو المال الحرام كالربا والرشوة سمي سحتا من سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة أي مقطوعها أو لأنه يذهب فضيلة الإنسان ويستأصلها واليهود أرغب الناس في المال الحرام وأحرصهم عليه

وقد وبخ الله - تعالى - علماء اليهود وفقهاءهم على عدم نهيهم لهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، لأن هاتين الرذيلتين هما جماع الرذائل، إذ القول الباطل الكاذب إذا ما تعود عليه الإنسان هانت عليه الفضائل، وقال في الناس ما ليس فيهم بدون تحرج أو حياء

وأكل السحت يقتل في نفسه المروءة والشرف، ويجعله يستهين بحقوق الناس وأموالهم

ولقد ألف علماء اليهود أكل أموال الناس بالباطل بدعوى أن هذا الأكل سيغفره الله لهم، ألا ترى قول الله - تعالى:**{فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا}** قال بعض العلماء: واقتصر - سبحانه - في توبيخ الربانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت، ولم يذكر العدوان - الذي ورد في الآية السابقة إيماء إلى أن العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجؤون في زجرهم إلى غيرهم لأن الاعتماد في النصرة على غير المجني عليه ضعف

وقوله:**{لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ}** تذييل قصد به ذم علماء اليهود بسبب تركهم لفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وقوله:**{يَصْنَعُونَ}** من الصنع وهو العمل بدقة ومهارة وإحكام

أي: والله لبئس الصنع صنعهم حيث تركوا نهى عامتهم عن قول الإثم وأكل السحت

وقد تكلم المفسرون عن السر في أن الله تعالى - ذم اليهود بقوله:**{لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}** وذم علماءهم وفقهاءهم بقوله:**{لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ}**

وقد أجاد الكلام عن ذلك الإمام الرازي فقال: والمعنى، أن الله - تعالى - استبعد من

علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي، وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه، لأنه - تعالى - ذم الفريقين بل نقول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى، لأنه - سبحانه - قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت{**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**} وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر{**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**} والصنع أقوى من العمل، لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار راسخا متمكنا، فجعل جرم العاملين ذنبا غير راسخ وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنبا راسخا والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم ومازالت المعصية كان كمثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء إلا أن المرض بقي كما هو

وقال ابن جرير: كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها

وقال ابن كثير: روى الإمام أحمد عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ : **«ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل المعاصي، هم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب»** (١)

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب علي بن أبي طالب، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس!! إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار فلما تمادوا أخذتهم العقوبات فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً، ولا يقرب أجلاً

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد وبخت اليهود على حسدهم للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، ووصفتهم بجملة من الصفات الذميمة حتى يحذرهم المؤمنون، ويجعلوا ولاءهم لله ولرسوله ولإخوانهم في العقيدة والدين(٢)

* * * * *

(١) مسند أحمد/ ١٨٤١٩.
(٢) تفسير سيد طنطاوى صفحة: ١١٧.